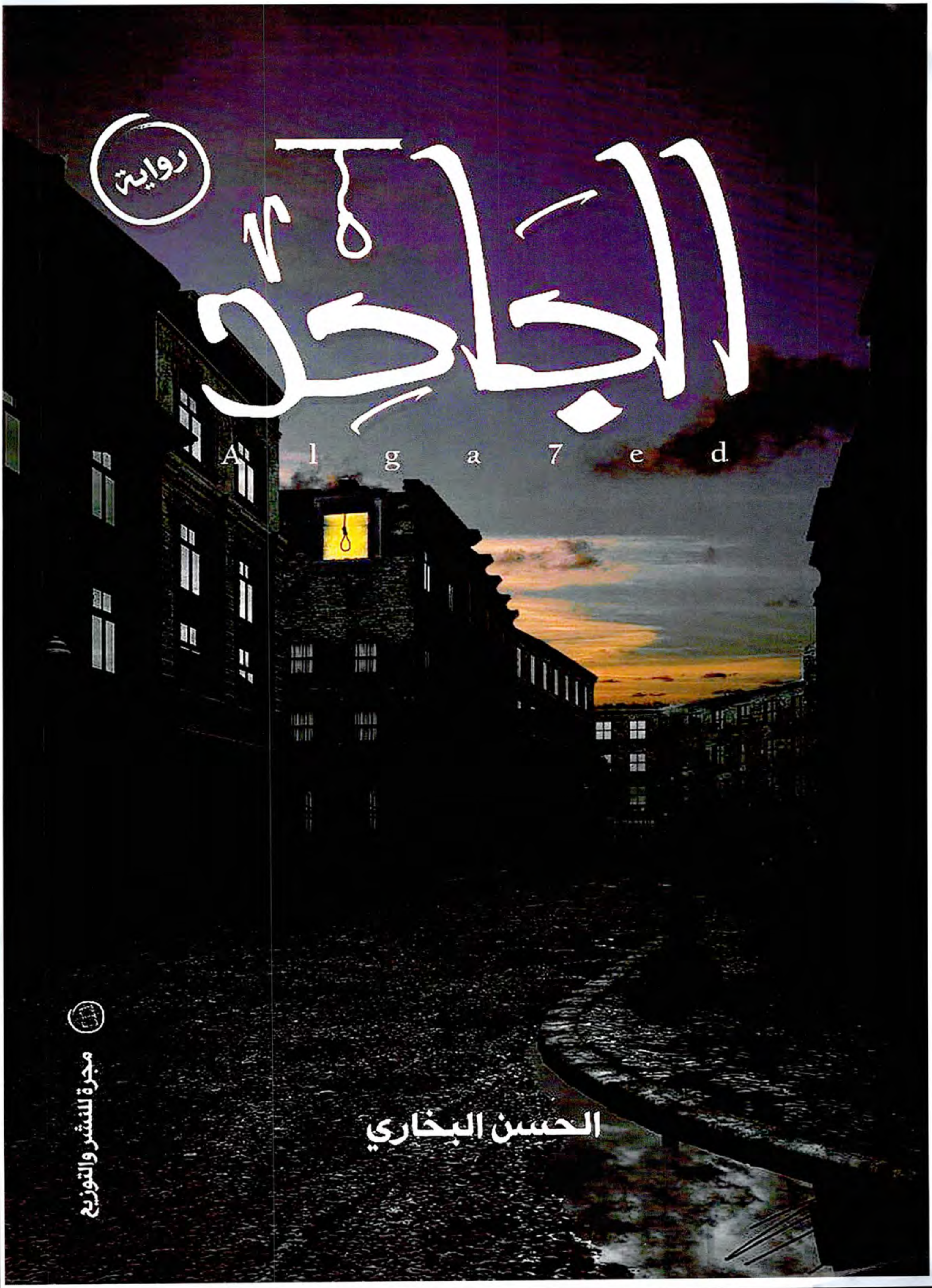
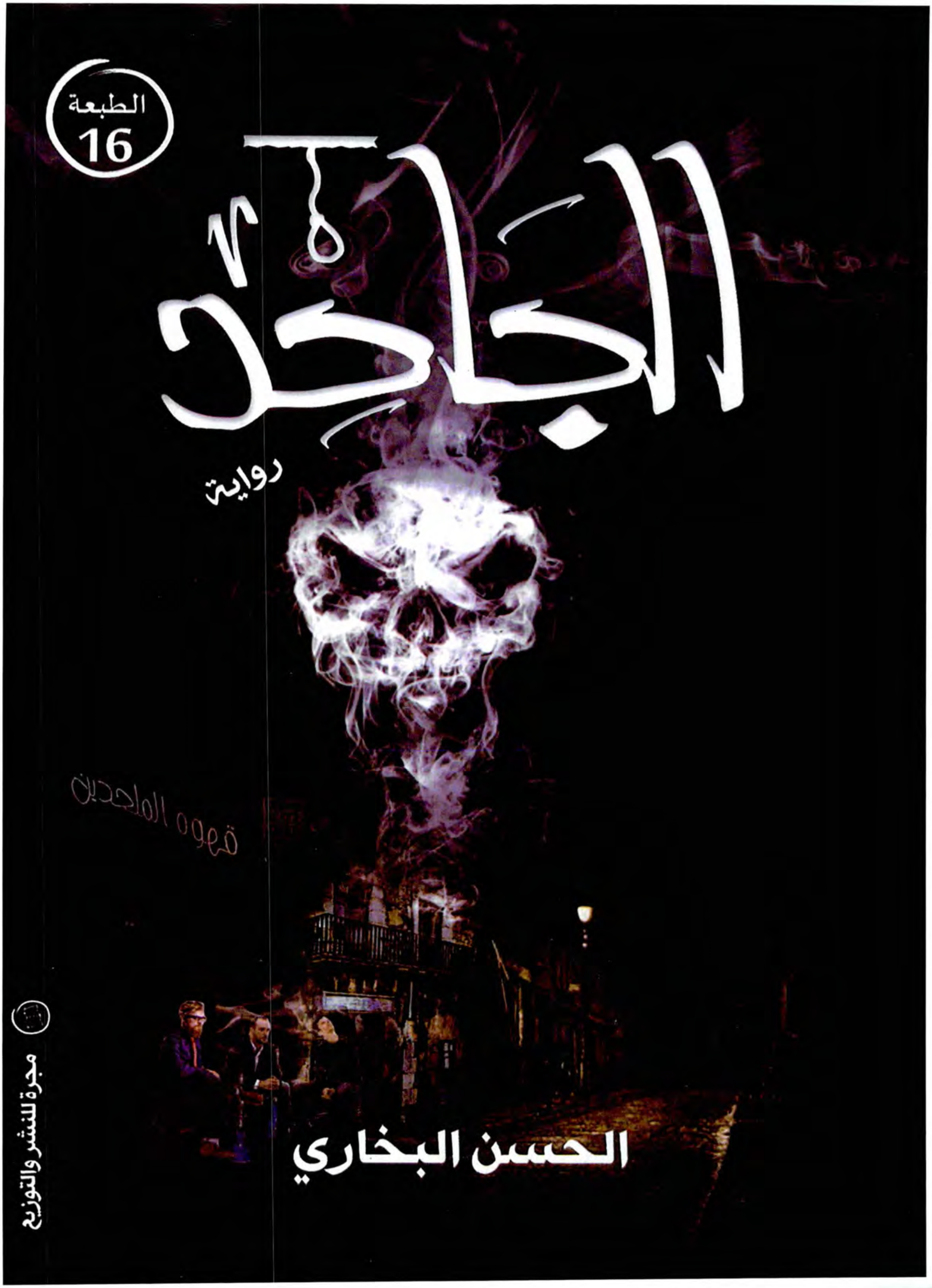

رواية
الجاحد
Alga7ed
الحسن البخاري
مجرة للنشر والتوزيع


الطبعة
16
الملحد
رواية
قهوة الملحدين
الحسن البخاري
مجرة للنشر والتوزيع

الجَاحِـد

إهداء

إهداءٌ إلى كل من يُعمِل عقله بشجاعةٍ للوصول إلى الحقيقة..

إهداءٌ إلى من يعرف قدر عقله لا ينقصه حقه ولا يولِه فوق منزلته متجنيًا عليه..

إهداءٌ إلى شيخٍ يدعو الناس لا يدعو عليهم..

إهداءٌ إلى دولةٍ تقارع الفكر بالفكر لا بالهراوات..

إهداءٌ إلى واقع أجمل.. إلى مستقبلٍ مشرق بيننا وبينه خيطُ أمل..

إهداءٌ إليك !

تقـديـم

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه،

وبعد،

فهذه الرواية التي بين يدي القارئ العزيز من تأليف أخي الأصغر الحسن البخاري تحكي طرفًا من دورة الحياة التي يخوضها الشاب العربي الملحد بداية من الإحباطات النفسية والأسرية والمجتمعية، بل والسياسية، التي تكون داعيًا قويًا للإلحاد وانتهاءً بفقدان المعنى من الحياة والدخول في دوامة التشتت والضياع والانهيار.

وحقيقٌ بالإحباطات النفسية والأسرية والمجتمعية أن تكون دافعًا قويًا إلى الإلحاد خصوصًا إذا امتزجت هذه الإحباطات بقابلية داخلية لدى الشاب للوقوع في براثن الإلحاد. هذه الإحباطات تتنوع فقد تكون أمورًا نفسية مثل فشل المرء في تحقيق هدفٍ غالٍ ونفيسٍ ومهمٍ لديه خصوصًا إذا ارتبط هذا الفشل بالدعاء المتكرر إلى الله تعالى حتى ينجح ولا يفشل، ثم عندما يقع الفشل يتوجه الإنسان باللوم إلى ربه ويلقي عليه بمسئولية فشله وإخفاقه وعجزه وتقصيره! وقد يكون هذا الفشل أو الإخفاق نتيجة أمورٍ قدريةٍ لا يد للعبد فيها، إنما تكون من الله تعالى اختبارًا وامتحانًا ليرى هل يلجأ إلى ربه ويعود إليه أم ييأس من روح الله، لكن

الإنسان العجول الظلوم يريد أن تكون حياته كلها نعيمًا بلا مشقة ونجاحًا بلا فشل وانتصارات متوالية بلا هزيمة واحدة، وهذا خلاف السنن الكونية!

وقد ترجع الإحباطات لأسباب أسرية كأن ينشأ المرء في أسرة مفككة لا يجد فيها من يهديه ويرشده أو من يصلح أن يكون قدوة صالحة، فيكون سبيله إلى الضياع والحيرة والتشتت واعتناق أكثر الأفكار تمردًا وعصيانًا، فكأن الإلحاد والتمرد على ربه الذي في السماء انعكاسٌ لتمرده على رب الأسرة على الأرض!

وقد تعود الإحباطات لأسباب مجتمعية كأن يكون الشاب لديه استشكالات واستفسارات وأسئلة مشروعة عن الدين ولا يجد الإجابة عنها، بل قد يكون الأمر أسوأ عندما تقابل استفساراته الصدود والإنكار والاتهامات بالكفر والإلحاد، فيكون لهذا المسلك رد فعل سلبي يدفع الشاب إلى كراهية المجتمع ورموزه ودينه، فيكون ذريعةٌ للإلحاد. ويظهر هذا أكثر إن لم يجد في هذا المجتمع نماذج دينية إسلامية صالحة، أو كانت النماذج الموجودة على الساحة تسيء للإسلام ورسالته، فيسوء ظن الشاب في القائمين على الدين وعلى الدعوة إليه، ويسوء ظنه بالتالي في الدين نفسه فيتركه ويكفر به!

هذه الإحباطات المتنوعة قد تكون دافعًا للشاب أو الفتاة للوقوع في براثن الإلحاد، لهذا عندما يتخذ الشاب قرار الإلحاد يشعر بالراحة في البداية وبالانعتاق من "أغلال" الدين وتكاليفه، لكن هذا الارتياح المبدئي لا يلبث أن يتلوه الشعور بالضياع والتشتت وفقدان معنى الحياة، أو كما

يقول أحد كتاب منتدى التوحيد في رسالته لأحد الملحدين عندما كان يشكو إليه من رغبته في الانتحار:

((ذكرت يا هداك الله أنك فكرت في الانتحار لما ألم بك من ظروف سيئة لا تعدو ما يواجهه مراهق في مقتبل عمره حين يعاني أمر تكوين شخصيته واكتساب الأصدقاء من حوله، وذكرت ما بلغت بك الوسوسة حتى شككت في عقلك وقدراته الذي كان سلاحك يوما في الإعراض عن الله وما اشترعه لعباده المؤمنين، فإذا به سلاح في يدك لكنه عليك لا لك، وإليك لا إلى غيرك.

وما عجبت أبدًا وأنت تدين الإلحاد أن تفكر بالانتحار فهذا أمر لا يستغرب، بل أعظم ما أعجب له أن أرى ملحدا لا يعزم على الانتحار ولا يقدم عليه، فكيف له إن كان ملحدا حقا أن يقاسي مرارة الحياة بلا هدف سوى أن يكون ألعوبة لصدفة أزلية حمقاء عمياء، لا منتهى له فيها يزيد على أن يكون جيفة منتنة بقفر من الأرض تتحلل حتى لا يكاد يبقى منها شيء ثم لا حساب ولا عقاب ولا أمل ولا رجاء بعد كل تلك الحياة المليئة بالأسقام وقساوة العيش، فما معنى هذه الحياة حتى يصبر عليها ويصابر على شدائدها وصعابها؟ وما الذي يدفع ملحداً لأن ينشب بأظفاره فيها تمسكا بعيش ساعة لا يصفو كدرها ولا يحلو مرها.

وقدر لو أن الناس آمنوا بالإلحاد دينا، وكفروا بكل ما عداه، كيف سيعمرون حينها خراب أرواحهم بلذاذات الجسد التي يمحوها سراعا عالم النسيان، ويذهب ذكراها بما يتبعه من شقاء الحياة وشدائد عيشها؟ فأي شقاء للروح ذلك الشقاء ، وأي استعباد للجسد ذلك الاستعباد؟!

أفكرت؟ أتدبرت؟ لقد كان في ذلك كفاية لمن كان له عقل ولكن أين من يحسن التفكر والتدبر؟

عجبا للملحد لا ينتحر، فسيان حياته وموته، بل حياته في مقياس إلحاده سفه، لا دواء له إلا شراب أو مسحوق سام يستفه، أو إزهاق روحه بأي طريق يكون بها حتفه.

وإن من ألحد حق له أن يُلْحَد، فليس له فوق الأرض موطئ أو مأوى، وليس شيء أولى به من الأرض إلا لحد يُلْحَد فيه بما فيه من إلحاد وجحد.

ولا تظن أن من يمتنع عن الانتحار من المسلمين إنما امتنع لكونه حراما، إذا لا معنى لحرمة الانتحار عندهم إلا وجوب إحسان العمل في مواجهة الصعاب وعدم التخاذل عند مصائب الدنيا التي تتصاغر كبرياتها في نفس المؤمن بالله وقدره، فينطلق المؤمن في طريق إصلاح حاله ومن حوله حين يقعد الملحد في قارعة الطريق يبكي نفسه وينوح على مصابه ويهتف بالانتحار، ولو صدق في إلحاده لنخر نفسه وترك الصياح للديكة، لكنه إلحاد من لا يثق بإلحاده، بل جرأة فاسق علم أن تكذيبه الحق لا يمحو الحق بل يزيده جلاء، كما يزيد الليل بظلمته جلاء الصباح وإشراقة الفجر وإضاءة النجم وإنارة البدر، فلا يسعى في إطفاء نور الله إلا زاد إشراقه، ولا أشعل نار فتنة إلا أطفأها الله وأحرقهم بها في الدار الآخرة.

إن المسلم حقا لا ينتحر لأنه يتشبث بساعات الطاعة وآنات الذكر وأعمال الخير، ولا يتمنى الموت إلا أن يكون خيرا له في دينه لا لألم من الدنيا يسير أصابه، وكل ألمها يسير عند المؤمن الصابر، وشديد على غيره.

وقد ظننتَ أن مقياس البؤس والألم هو جوعة في أفريقي، وأن لا أشد منه بؤسا، ولو قد علمت، لعلمت أن في بؤس الروح ما هو أشد وأعظم من بؤس الجسد، فإذا اجتمعا فذلك البؤس كله، ومتى كان عذر الإنسان في إيمانه وكفره بقدر ما في قِدره أو ما حشاه بطنه واغترفته يده من أكلة وشربة؟

وأما آخر ما ذكرته من أن وجودك من العدم مصيبة في رأيك لا نعمة فكيف تطالب بشكر الله عليها؟

فما ذلك إلا كما قلت لك من حال الملحد، فإن حياته لا معنى لها في أولها ولا آخرها ولا في استمرارها، فما بين الملحد وبين الانتحار؟! إلا أن تكون شهوات الجسد كما هي نزوات البهائم؟ وما أرخص ذلك وما أبخسه لإنسانية الإنسان!!

فهلا راجعت نفسك لتعرف منها فقرها إلى خالقها وحاجتها إليه إيجادا وإمدادا، فلو قد فعلت ذلك لكفتك بجوابها عن جواب غيرها، ولكن من لم يعرف نفسه لا يعرف غيره.

وأسأل الله أن يهديك إلى الإيمان به والإذعان لشرعه، فما لك في الإلحاد من خير ولا لغيرك فيه خير، وما هي إلا طريق موحشة متلفة، تذهب ساعات عمرك في شقاء روحك وعقلك وبدنك، ولو كنت مؤمنا لسعدت روحك وسمى عقلك وتطهر بدنك، فاختر لنفسك ما لا تندم عليه في الدارين، ولا تذوق عليه الأمرين، وانظر بعين عقلك لا عين الشبه الكليلة، واسمع بأذن المنصت لا بأذن اللاهي في غيه، فما أضيع من ضيع الآخرة الباقية لساعات حقيرة فانية.)) ا.هـ باختصار

هذه هي دورة حياة الملحد العربي وهي تختلف كثيرًا عن حياة الملحد الغربي الذي ينشأ في بيئة لادينية ومجتمع لا يتمركز حول الدين، لهذا يكون وقوع الشاب العربي في الإلحاد تعبيرًا صارخًا عن رفضه لمجتمعه ودينه وأسلوب حياته بخلاف الملحد الغربي.

وقد أجاد أخي الأصغر الحسن البخاري في عرض هذه الحياة بما فيها من نوازع وصراعات نفسية داخلية وإحباطات أسرية ومجتمعية بشكل بارع جعل فيه الخيال حقيقة واقعة أمامنا تتنفس وتأكل وتشرب وتمشي في الأسواق –أو الكافيتريات/المقاهي (ابتسامة)- فله الشكر الوافر الجزيل، وأسأل الله تعالى أن يبارك فيه وفي قلمه البارع ويسدده ويوفقه إلى كل خيرٍ ورشدٍ وصوابٍ.

د. هشام عزمي

مدير قسم الإعلام والعلاقات العامة

مركز براهين لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية

21 يوليو 2015

(1)

رفع فنجان القهوة إلى فيه المتشقق من الحزن، كاد يسقط بعضها على قميصه الأبيض على إثر ارتعاش يده لولا أن تدارك الفنجان باليد الأخرى، ارتشف رشفةً بينما كانت عيناه العسليتان تنظران أسفل يساره بثباتٍ لا يخلو من هزّة لتشي بانشغال ذهنه بشيءٍ آخر، وعلى اتساعهما كانتا يحار فيهما الدمع كأنما يكافح للخروج ليصافح بشرته البيضاء وينهمر مخترقًا لشعيرات لحيته البنية التي لا يتجاوز طولها المليميترات كعادة الشباب في سنه على مشارف العشرينات من إطلاق شعر وجوههم..

أنهى رشفته ثم أعاد الكوب ببطءٍ إلى طاولة خشبية يجلس إليها في اطراف أحد مقاهي القاهرة العتيقة، تناول رغيف الفول الحار ذا الرائحة النفاذة ورفعه إلى فيه، وعيناه كما هما شاردتان، ولما لامس الخبز فمه فكأن عينيه لم تعد تطيق احتمال الدمع داخلهما فلفظته، وكأن الأجفان حراسٌ تهاووا أمام ثورة الدمع العارمة، فانهمر بلا صوتٍ وما أقسى الدموع الصامتة.. قد كذب من قال بصمتها، هي تصرخ ولكن لا يسمع لها صوت !

كان العندليب قد بدأ يعلو صوته من مكان مجاور "جبااااااار "

حدّث المسكين نفسه: هاهي الأقدار قد تلاعبت بي فتركتني جثة بالية على قارعة العدم، كأنها نذرت أن تعذبني.. فلا هي تحكُم عليَّ بالفناء فأرتاح، ولا هي تتركني وشأني فأحيا !

أتُرى الموت يفني المشاعر كما يفني الجسد؟ أم يتركها كما هِي تعذب الروح بسياط الذكريات؟!

يا ليتني ما كنت إلا عدمًا.. أستلذُّ بألّا أستلذ، وأفرح بألّا أفرح، فلو أني ما فرحت لما حزنت، ولو أني ما شعرت باللذة يومًا لما ميزت طعم الألم..

فيا سعد المنعدم ويا شقاء الموجود.. ماذا جنيت من الوجود إلا تمني العدم؟!

كأن الدنيا قد تواطأت على عداوتي، ولولا أني أخاف إن متّ أن أجد التعاسة تحت التراب أشد وطأة لما ترددت في إيقاف تلك الحياة البائسة..

فيا من فوق السماوات، أي لذة في الانتقام من عاجز؟ وأي انتشاءٍ في تعذيب مكلوم؟ ألا ترى حالي فترقّ؟! ألا تسمع أنيني فترحم؟! أوَفررت من أمٍ زانية لأصطدم بما هو أدهى وأمرّ؟!

قاطع حديثه البائس مع نفسه اقتراب شخصين منه، كان يراهما بشكلٍ مهزوز كأشباحٍ لكثرة الدموع التي تترقرق في عينيه.. ضغط أجفانه بعضها ببعض ليعتصر الدمع حتى يتمكّن من تمييز المقبلين عليه، وتساقطت الدموع لتكشف عن القادم.. ما هذا؟! أهي الأقدار تواصل عذابها بأن تريني الجمال قبل أن تقضي عليَّ لأقاسي لوعة الحرمان؟!

وجد فتاة كأنما أنزلت من الجنة تشاطر البدر جماله، عينان سوداوان كالكحل بين أجفانٍ ثملة، ورموشٍ طويلة مستديرة للخارج برِقّة، بشرة بيضاء معشَّقة بحُمرة تحوي شفاهًا رقيقة متوردة، تبتسم ابتسامة هادئة تكشف عن أسنان صُفَّت بعناية، وترفع يدها برشاقة لتحرك شعرها البني المتموج منسدلًا على كتفها كأنما تردّ انتعاشه، تشع حرارة خمرية يذوب أمامها جليد الصبر، قوامها الممشوق يدل على ينبوع الأنوثة المتفجر داخلها، وخيلاؤها في مشيتها توحي بكبرياء حواء قد جُمِعَ في شخصها..

وعن يسارها شابٌ يبدو أكبر منها سنًّا، يضع نظارة ضخمة تتملك جزءًا كبيرًا من وجهه، ولا يلفت في مظهره أكثر منها إلا شعر رأسه الكثيف المتشابك مكوّنًا شكلًا كرويًّا يستحيل مرور المشط من خلاله ليتصل بشعر لحيته لا يقل كثافة عن شعر رأسه وشاربه، على كتفيه يظهر ذراعا حقيبة ظهره، تظنه لأول وهلة رحّالة ضلّ طريقه لولا هندمة ملابسه ونظافتها..

وضع حدًّا لشدة اندهاشه مبادرة الفتاة بإلقاء التحية:

- أهلًا..

فردَّ متلعثمًا بعد أن اعتدل في جلسته:

- أهلًا وسهلًا !
- هَل يمكننا الجلوس؟

فردَّ بعينين مرتابتين:

- طبعًا تفضلا !

شكراه بلطفٍ وبادرا بالجلوس ثم قال الشاب:

- لاحظنا الضيق على وجهك فقلنا نرى إن كنت تحتاج شيئًا.

ردَّ وقد زاد ارتباكه:

- حقًّا ! شكرًا لكما، أمرٌ بسيط لا يستحق إزعاجكما .
- أنا دانيال وهذه دنيا، وأنت؟

رد وقد تضاعفت ملامح ارتيابه :

- هادي !

فسارعت الفتاة مجاملةً :

- جميل اسمك يا هادي، لم ألاحظ وجودك هنا من قبل ! تبدو غريبًا عن المكان !
- وهل تعرفين كل من هنا ؟!

ردت وهي تضحك :

- تقريبًا أعرف الجميع، هذه القهوة تعتبر بيتي .

فردَّ مستغربًا ولم يفطن لمرادها:

- أها.. في الحقيقة أنا لست من هنا، أنا من الإسكندرية .
- الإسكندرية! إنها معشوقتي !!، أتذكر يا دانيال الشتاء الماضي يوم قررنا بجنونٍ زيارة الإسكندرية على شدة الصقيع ولفح البرد؟
- هاه بالطبع أتذكر! ومن ينسى! كانت مدينة جميلة، رائحة

شوارعها بعد هدوء الأمطار تُثملك كمسكٍ فواح، ما زلت مُصرًا على أن أستنشق نسائم البحر عند الفجر وأصوات الموج تدغدغ سمعك وقطرات المطر تداعب رأسك إدمانٌ لا يقدر أحدٌ على التعافي منه .

فأردفت دنيا بودٍ مخاطبة هادي:

- لقد تمشينا فجرًا على شريط البحر من سانيستيفانو وكانت قطرات قليلة من الماء تتساقط على رؤوسنا، ثم مررنا بجليم، وظللنا نتمشى حتى وصلنا بعد ساعة إلى سيدي جابر وبدأ المطر يشتد فوق رؤوسنا، فهرولنا بسعادة على الشاطئ، ولولا شدة المطر لكنا أكملنا السير إلى المنشية ثم القلعة، لكن دانيال خاف أن تصيبه نوبة سعال فاضطررنا للتوقف عند أحد المقاهي قبل كامب شيزار.

قاطعها دانيا :

- الحق عليَّ لأني خشيت عليكِ .

التفتت إليه ضاحكةً وقالت:

- لا تنكر، لقد تعبت من الركض !

توقفت عن الكلام فجأةً إذ رأت دانيال ينظر إلى هادي مشفقًا، نظرت إليه فوجدته شارد البال ينظر للأرض، فقالت خجلة :

- آسفة ! يبدو أننا أزعجناك أكثر مما ينبغي..

انتبه هادي وقال مرتبكًا وقد ظهرت علامات الإحراج على وجهه :

- لا لا ! لكن يبدو أنكما تعرفان كثيرًا عن الإسكندرية .

ردت مزهوةً وفي صوتها نبرة فخر:

- بالطبع ! كثيرًا ما أذهب إلى هناك، أين تسكن في الإسكندرية؟
- كنت أسكن في سموحة .
- كنت؟!
- نعم.. وما زلت مازلت ! (قالها بتلعثم)

ردت والحيوية تملؤها:

- لكن القاهرة جميلة أيضًا
- أها بالطبع !

تهيأ دانيال للقيام وهو يقول:

- أستأذنكما في الوقت الحالي، جاءتني رسالة مهمة من مديري في العمل، يتوجب عليَّ الذهاب لاستلام طلب من أحد العملاء .

ردت دنيا:

- تفضل لا مشكلة .

وبعدما ذهب نظرت بمكرٍ إلى هادي وقالت:

- ألا تنوي التحدث؟
- بماذا ؟!
- بما يضايقك !
- يضايقني؟ لا شيء يضايقني !

ردت وهي تضحك :

- لا تنكر، ما تتحدث به عيناك الشاردتان وتنطِق به وجنتك المكفهرة، فلست ممن يحسنون إخفاء المشاعر .

نظر هادي إليها مندهشًا لجرأتها التي أعادت إليه الارتياب بعد أن كان قد بدأ يألف تلك الفتاة وقال:

- لا أحب أن أشغل بالك بما لا يهم .
- لالا تقلق ! بالي خاوٍ فلا تحمل همّه.. احلكِ علّه يكون بيننا صداقةٌ تكرمني لأجلها حين آتيك ثانية في الإسكندرية .

ردَّ هادي واعتلت وجهه غيمة من الحزن العميق بعد أن تنهَّد تنهيدة تفضح ألمه :

- ليتني أستطيع العودة إلى الإسكندرية ثانيةً .

فردَّت الأخرى مستغربة :

- ماذا ؟!! هل أنت هارب؟!! ماذا حدث؟ أخبرني !
- لا لستُ هاربًا، ولكن لا يمكنني العودة !
- لماذا؟!
- لا أدري ماذا أقول! شبحٌ من الذكريات الأليمة يطوف بأرجائها فيخالط هواءها، ليصبح عليل نسائمها سمًّا زعافًا يتسرب إلى ثنايا جسدي فيزيدني على الويل ويلات، وأصرخ الآهات فلا يسمعها من أحد، وما أقسى لهيب الذكرى إذا أشعلته خيبة الحاضر وضباب المستقبل .

ردَّت دنيا وقد بدا عليها التأثر لزفرات المسكين :

- نعم ما أقسى لهيب الذكرى !
- ولوعة الوجد عند الصدمة، وألم الضياع في ازدحام الدنيا .
- يا لوجعِ كلماتك ! كأنك تنبشِ فيَّ ماضيًا سحيقًا ما لبثتُ دفنته!
- ولك ماضٍ كماضيَّ؟ لَمَا عِشتِ إذًا !
- فلرب مغلوبٍ هوى ثم ارتقى.. !، ألا تريد أن تحكي؟ احكِ.. احك وسأحكي لك عن قصتي .

لم يحفل كثيرًا لمعرفة قصتها؛ فهو ليس من النوع الذي يُغزى بفضوله، لكن مع إلحاح الفتاة الممتزج بجاذبيتها وخفة ظلها تهاوت قلعة الصمت أمام ضربات عينيها، وبدا هادي كحملٍ وديع بين يديها، حكى لها المسكين عن أنينه، وشكا ما فعل الزمان به !، فمنذ أن أحس بالدنيا حوله لم يُعاين يومًا يصبِّره على ما فيها، ولما بدا له في الأفق،شعاع أبيض؛ اكتشف أنه سرابٌ في فلاة ! فكانت القاصمة . .

وعى الحياة ليجد نفسه في دار أيتام..

*****

بناءٌ كبير أبيض جيري يميل للصفار، حوله سور مرتفع، داخله ردهة على جانبيها أبواب غرف بعضها مثل بعض، في آخر الردهة شرفةٌ تطل على أرض خلف السور شاسعةٍ تتناثر فيها أعشاب يبدو عليها عدم الاهتمام، في كل غرفة ثلاثة أسرّة، كل سرير مكوَّن من طابقين، واعتادت الشمس كل صباح أن تصافح الجزء الأوسط من أرض الغرفة ولا تتعداه إلى باقي أركان الغرفة لصغر حجم النافذة ..

على كل فراشٍ يرقد طفلٌ سلب الزمان بسمته، وجارت الحوادث على نقاء فطرته، وبينما كان الأطفال في مثل عمرهم يستيقظون على صوت أمهاتهم الحنون وأيديهن تهزهم برفقٍ، كان هؤلاء يتجرعون أنفاس يومهم الأولى على صوت جرسٍ مزعج يخترق آذانهم الصغيرة فيستل النوم من أعينهم وينتزع السكينة من أسرّتهم ..

وبينما كان غيرهم يقوم متثائبًا بدلالٍ ليسمع صوت طهو أمه للفطور اللذيذ، كانوا هم يتدافعون على طابور الإفطار بأطباقهم ليرمي فيها الطاهي بما يسميه طعامًا، ثم ينظر إليهم نظرة شذرٍ الواحد تلو الآخر هاتفًا بصوتٍ رتيب : "التالي" !

كل يوم من الفطور إلى النوم كانوا يفعلون لا شيء ! إلا تلقي الصرخات من مدام حفيظة، امرأة قاسية لا تعرف الرحمة إلى قلبها طريقًا، تشرف عليهم اضطرارًا لتسد رمقها براتبٍ زهيد ..

وكأنها تستلذ بالقسوة على أولئك المساكين، فلا تجد فرصة للتنكيل بأحدهم إلا واغتنمتها منكلة به، وكانت نظرات الأطفال التي سُلِبَت براءتها وهم يستجدون الرحمة لا تزيدها إلا حنقًا وغضبًا، بل ربما انتشاءً بتعذيبهم ..

وكان البشر في الخارج بمعزل عما يحدث، وكان اليوم يمضي على وتيرة مملة بائسة، كل يومٍ كما قبله وينتظره مثله بعده ..

والملجأ سجنٌ رحيمٌ يقضي فيه البؤساء حُكمًا حكمه عليهم القدر ..

لا تدري أيهم أسرع إهلاكا لهم، أسوء الطعام أم قسوة المدام أم ضجة المنام أم رتابة الروتين اليومي أم الفراغ الذي لا يكاد ينتهي..

ولا يكسر روتين اليوم إلا إعلان عن زيارة لأحد مسئولي الدولة المعتبرين، لينقلب الحال على غير كل حالٍ، فترى الطعام كأنما طهي في أفخم المطاعم، والأسرَّة تكاد لنظافتها تشع ضياءً، والردهة تفوح ريحانًا مسكِرًا، حتى مدام حفيظة تراها مبتسمة !

يصل المسئول لتُلتقَط له الصور على عجالة من الأطفال وينصرف، وتمتلئ الجرائد بالصور طافحة من صفحاتها الأولى، فيا لرحمة جنابك !

وبين تلك الظلمات النائية تستطيع تمييز هادي بسهولة إذا وصف لك: طفل له من اسمه حظ وافر، هادئ الطباع والملامح على غير عادة أقرانه، بشرته صافية وشعره بني، قليل الكلام على صغر سنه كأنما يشتري الأحرف فيضن بها عند الحديث..

لا يحب الاحتكاك بأحد، ولا يعرف عن أمه إلا صورة تجمعهما وهو ابن العشرة أشهر، كانت أمه فيها ذابلة الوجه زرقاء الشفة، تساقط كل شعرها شدَّ ما تتناول من الدواء، ولكن لا دواء يداوي الموت..!

قضى طفولته بلا طفولة، ومُزّقت أحلامه الصبيانية على أسنة الرماح المنبثقة من كلمات المشرفين في السجن الرحيم..

لا تحتاج أكثر من تأمُّل عينيه لتعي كم الألم الساري داخل روحه، والمسكين لا يقدر على الشكوى إلا أنينًا على وسادته ليلًا، فطوبى لوسادةٍ تمتص ألم المنكسرين..

واستمر الحال على ذلك المنوال حتى ناهز السبعة أعوام، فمضت من حياته أنقاها وهدرت من سنيهِ أطهرها ..

وفي صباح لا يختلف عن غيره كانت أشعة الشمس تخالج الشرفة وهو يجلس فيها وحده متأملًا للحشائش المتناثرة في الأسفل، وكانت أحد البلابل قد اتخذت لنفسها عشًا في أحد المصابيح التالفة في الشرفة، وتنتظر ذلك التوقيت لشق السماء باحثة عن ما تدفع به جوع صغيرها..

كان المسكين يراقب الأعشاب حتى قطع خلوته صوت المدام الخشن:

- ماذا تفعل؟

فردَّ ببؤسٍ:

- لا شيء .

سارعت كأنها ما كانت تنتظر ردًا:

- أسرع بارتداء ملابس مناسبة، هناك زيارة مهمة .

تنهد ناظِرًا إلى الأرض وانصرفت وهو يتمتم..

*****

في مكتب مدير الملجأ كانت نسائم الهواء الباردة من التكييف تضفي سكينة على المكان المتألق، والمقاعد الفخمة تتوسط الغرفة أمام المكتب الثمين، والسجاد الأحمر الهادئ يزيد المكان رونقًا، كأنما أعد ذلك المكتب خصيصًا لتلك الصور في الجرائد..

وكانت الموسيقى الفرنسية الهادئة تنبعث من المذياع في إحدى الزوايا، ويدق الباب ليدخل هادي ومعه المدام، وينظر نظرة سريعة ليتفحص المكان؛ فيرى المدير ذا النظارة الكبيرة والبزة الأنيقة ينفخ السيجار وهو يضحك بودٍ للضيفين العجوزين.

رجلٌ وزوجته يناهزان الستين من عمريهما، تبدو الطيبة على صفحات وجهيهما، لكن هذه أول مرة يأتي مسئول معه زوجته !، وما يدريني.. ربما تكون وزيرة هي الأخرى!

وانقطع تفكيره مع دفع مدام حفيظة لكتفه بغيظ وهي تبتسم للضيفين كأنما تنبهه لطول شتاته، فيبتسم ابتسامة نفاق تعلمها على صغر سنه من وجوده في ذلك المكان..

يجلس صامتًا والعجوزان ينظران إليه بينما المدير منشغل بإمضاء بعض الأوراق، والمدام تقف ناظرة إليه بانتباه..

وتبادره العجوز بودٍ:

- ما اسمك يا بني؟

فيردّ على الفور:

- هادي.

فتبتسم ويصدر المدير صوتًا كأنما يستعد للكلام وهو يرتّب الأوراق على المكتب، فينظر الجميع إليه فيقول:

- كل شيء على ما يرام، يمكنكما أخذه.

ويبتسم العجوزان وتميل تجاهه المدام قائلة بلطف يظهر تصنُّعه:

- كن مؤدبًا معهما يا هادي.

ويعلو التعجب وجهه فيتوّجه بصمته، ويقوم العجوزان، ويأخذ الرجل الأوراق من يد المدير والفرح يبزغ من عينيه، ثم يسلِّم على هادي الذي ما زال تائهًا في اندهاشه، ويأخذه بلطفٍ تحت ذراعه ويسير به ومعه زوجه، وتوصلهما المدام إلى باب الملجأ، ليخرج من سجنٍ رحيم إلى سجنٍ بلا رحمة !

وتقودك الأقدار إلى أين لا تدري ولكنك تنقاد، وتعبث بك الحوادث فتلاقيها بصمتٍ عزّ أن يتوفر لمثلك، مسيَّر أنت مذ ولادتك وأنت تستنشق عبير الحياة حتى تأبطك ذلك العجوز والسعادة في عينيه، وتنظر من زجاج السيارة الفارهة إلى الملجأ وهو يبتعد شيئًا فشيئًا، وتراودك الدموع عن نفسك ولكن على أي شيءٍ قد تبكي؟ فتكبحها مؤثرًا نزفها على وسادتك .

مضت الدقائق تطارد بعضها بعضًا حتى وصلوا إلى شقةٍ في أحد أبراج سموحة، مكانٍ هادئ يبعث بالراحة والطمأنينة إلا لشخصٍ لا يعلم أين هو ولا يدري ما سيُفعَل به.

فتحت العجوز باب شقتها ودخلت وخلفها زوجها يداعب شعر هادي، نظر هادي إلى جنبات الشقة وهو ما زال لصق الباب يتوجس، لا يذكر

أنه رأى شقة من الداخل في حياته القصيرة، ربت عليه العجوز وقال:

- تفضل يا بني.

أغلق الباب فزاد توجسه، أمر بالجلوس فجلس، كان الهدوء مخيفًا لولا بعض أبواقٍ لسياراتٍ تمر من الأسفل، وتأمل تفاصيل المكان على ضعفِ الضوء فانجذب للأثاث العتيق والتحف الفاخرة، غاصت أطراف أقدامه الصغيرة التي لا تكاد تمس الأرض وهو يجلس على الأريكة في ثنايا السجاد الفخم، شقة غريبة مملة، لا يبدو أن فيها أحدًا سوى العجوزين.

فتحت العجوز النافذة فانسل الضوء مسرعًا إلى الصالة حيث يجلسون، وتنحنح زوجها استعدادًا للكلام، ولما جلست قال الزوج :

- أهلًا بك في بيتك الجديد يا ولدي.

نظر إليه الصبي مستغربًا فتابع:

- أنا ثروت وهذه زوجتي حبيبة.

ثم صمت ينتظر تعليقًا فلم يجد حتى صدى صوته! فأردفت زوجه بعد فترة من الصمت والتردد:

- وإننا يا بني كما ترى، عجوزان، وعلى طول عمرنا لم نرزق بطفل تقر به أعيننا، وما عدنا نريد من هذه الدنيا إلا بسمة أمل تعيش بيننا، وقد ذهبنا للمكان الذي كنت فيه وطالعنا مستندات الأولاد فاخترناك ابنًا لنا..

تجاهلت عينيه المستفهمتين وتابعت:

- منذ اليوم، أنا ماما وثروت بابا.. ها ماذا قلت؟

انتبه هادي من دهشته وقال مترددًا:

- حسنًا يا طنط!

ابتسمت وقالت بنبرة تأنيب :

- ماذا قلنا؟!

فقال بلهجة معتذرة:

- حسنًا يا ماما.

خفق قلب العجوز الذي يبَّسه الزمن لما سمعت هذه الكلمة، وتورد خداها وابتسمت وفرَّت منها دمعة فمسحتها بيدها، وطرب زوجها لِما سمع وقال للصبي يستنطقه :

- ومن أنا؟

فقال هادي بثقل:

- بابا .

فضمه العجوز إليه وبكى وقال بصوت محشرج بالبكاء:

- وأعدك يا ولدي بأني سأنسيك ما مرَّ بك .

وقالت الزوجة:

- إذًا اتفقنا يا بني؟
- اتفقنا.

وكأنك كنت تملك خيارًا، وابتسمت لك الحياة بعد طول عبوس،

وأسرُوك ألعابًا تطير بِلُبِّ الصبية، وأخرجت لك العجوز من خزانتها من أفخم الملابس ما جمعته طوال عمرها لمثل تلك اللحظة، وطفلٌ ما عاد يدري أين الحق من العبث، أهوَ بين أسوار قضى فيها حكمًا على جريمة لا يعرفها؟، أم عند عجوزين كانا ضحية عقم أذل رهف مشاعرهما، أم عنده وهو الذي ينادي امرأة بـ"أمي" وهو بعد لم يقضِ معها يومًا كاملا؟

وحين تتراكم التساؤلات فالصمت ملجأ الضعفاء، وأيٌّ أضعَف من هذا المسكين؟!

أيامٌ من الرفاهية أوهمتك أنك تخلصت من ماضيك، وصارحته الأم بعدها فقالت:

- أي بني.. إني وإن كنت لم ألدك إلا أنك صرت قطعة من فؤادي، وفقدك جرح لن يلتئم.

وابتسم المسكين فرحًا بمشاعر حرم لذتها، وأيامٌ كعادتها نسجت سنينًا أنست المسكين ما كان، وحُلت عقدة لسانه إذ ينادي أباه وأمه، وصار تلميذًا في مدرسة بجواره كما كل طفل، ولكن الطبع يغلب التطبع، فكان للعزلة أقرب منه للخلطة بالغلمان، وكذلك قضى الابتدائية والإعدادية حتى بلغ الثانوية .

*****

الشمس تلفح رمال الملعب الصفراء آذنة بيومٍ حارٍ يلهب الأجساد، والغبار يملأ الجو كمعركة إذ أثاره لعب الغلما_ للكرة، كان هادي يسير بجوار الجدار في ملعب المدرسة الثانوية ملتمسًا للظل، يتناول طعامه في هدوء، قاطع طريقه صبيٌّ ضخمٌ يتفحد _ من جهته العرق ويتطاير الشر من نظراته، قد كان عائدا لتوه من معركة مع أحد الطلاب في الصف الآخر، نظر إليه هادي كأنما يستغرب قطعه لطريقه وهمَّ بتفاديه منصرفًا فاستوقفه الشقي بيده وقال:

- إلى أين تذهب؟

نظر هادي إليه متفحصًا وجهه الممتلئ باللحم وبطنه السمين ورقبته التي لا تكاد تظهر فكأنما غرست رأسه بين كتفيه غرسًا ثم قال :

- لست ذاهبًا إلى أي مكان !

فردَّ الآخر شذرًا :

- كم معك من النقود ؟
- وماذا يهمك في ذلك؟!

غضب الصبي الضخم وقال: كيف تجرؤ على مخاطبتي بهذه الطريقة؟! ورفع يده يلوح بها استعدادًا للبطش بالآخر، وهوت يده فلم يوقفها إلا صرخةٌ يعرف صاحبها الذي قال له:

- توقف يا زلطة !

انتبه زلطة ونظر إلى مصدر الصوت؛ فعلم أنه لم يخطئه!، كان بركات ابن مدرس الرسم، ومن يقدر على مضايقته لينال قسطًا من الضرب على

يد والده يهدّ الفحول؟!

نظر إليه زلطة وقال في استغراب:

- ماذا؟!

فأجاب الآخر:

- إنه صديقي، ابحث عن شخص آخر لتضايقه.

زمجر زلطة واستجمع قبضته وأرخى رأسه وانصرف يغمغم..

نظر هادي باستغراب يمازجه امتنان إلى بركات الذي أنقذه من براثن زلطة، فابتسم بركات وقال:

- أو على الأقل سنصبح صديقين الآن.

وابتسم على إثره هادي وردَّ:

- شكرًا لشجاعتك.

فردَّ بركات وهو يعبث في شعره مزهوًا:

- العفو يا صديقي أمرٌ بسيط، هذا مَثَلُه كمَثلِ الكلب، إن فررت منه طاردك، وإن طاردته فرَّ منك.
- صدقت، وكثير ما هم.
- أنا بركات.
- وأنا هادي.

قويَت العلاقة بين الصديقين يومًا بعد يوم، تمازحا وتحاكيا وتنزها وتهاديا، ودعاه بركات إلى زيارة منزله فوافق بعد طول تردد.

وتعيش أيها اليتيم كما لم تكن، ولا تدري أن الدنيا لا تبتسم إلا مكشرة عن أنيابها لتنهش ما تطال من جسدك.

وبدوره دعاه هادي لزيارة منزله، وبينما كانا يحتسيان الشاي تفقد بركات الشقة بعينيه وتساءل:

- ألا يوجد لديك إخوة؟

اخترق سهم من الضوء ذلك الماضي الذي كان يحسبه ضاع بين صفحات السنين .

ويُنكأ جرحٌ قديم لك فترى أنه ما زال يثعب دمًا، وتهرب منه حتى إذا هدأْت لتلتقط أنفاسك وجدته ماثلًا أمامك .

تابع بركات:

- ولماذا يبدو أبوك وأمك أكبر منك بفارق أكبر من المعتاد؟!

نظر هادي إلى صديقه الذي يغزوه غزوًا وتمهل كأنما يتذكر سورًا أبيض، وبلبلًا ابتنى لنفسه عُشا، وعشٌّ ساقك القدر إليه سوقًا، وبعد طول تفكير قرر مشاركة صديقه ذكرياته، وكيف تقاذفته المقادير..

وعى الحياة ليجد نفسه في دار أيتام ..

*****

صافحت بشرته نسائم الصباح فانتعش، وسار والحيوية تملأ تقاسيم وجهه إلى مدرسته، صخرة كبيرة أزيحت عن صدره بعد أن كادت تمزقه حين حكى لصديقه بالأمس عن ماضيه، سار مزهوًا فرحًا بصديقٍ يخفف عنه من ثقل حمله، وعلى باب مدرسته لاحظ أن النظرات تلاحقه!، نظر إلى نفسه عل في ملابسه خطأ يلفت الأنظار إليه، ما زالت النظرات ترمقه والإشارات تتوجه إليه من بعيد، وتناثرت رباطة جأشه على قوتها إذ قال له زلطة :

- أهلًا بطفل الملجأ.

اتسعت عيناه لهول صدمته!!، وتتجرع مرارة الغدر على حداثة سنك، وتتساءل متى استطاع ذلك اللعين أن ينشر الخبر، وتلتهمك الأعين التهامًا، شدّ ما ستعاني أيها المسكين .

اكتشف أن كل المدرسة صارت تعرف بأمره، وكنارٍ في ركامٍ ينتشر الخبر، والنظرات لا ترحم، حتى وجد بركات فسارع الخطو إليه وصرخ :

- كيف تخبرهم بمثل هذا؟!

ردَّ الآخر ببرودٍ بيّن:

- لكنك لم تخبرني بأنه سر .

ويهتف زلطة:

- ماذا تفعل يا بركات؟ أتكلم طفل الملاجئ؟!

قال ساخرًا :

- لا، أنا فقط أقطع علاقتي معه.

فيتفاجأ المسكين ويقول:

- لكنك صديقي !
- كنتُ صديقك، أما الآن فلا .

وتعود صديق نفسك كما كنت أول مرة، وتذرف دمعًا يصرخ بأنين ماضٍ لم تختره، وحسبُك من نفسك عزّة بصَمْتك تبعثرت.

ويرد زلطة على بركات:

- أحسنت، فأطفال الملاجئ ما هم إلا أولاد زنا .

وتتعالى الضحكات مجاملة، ويصدم المسكين لما يسمع، ويتمنى لو صم فيرتاح، وتطارده الغمزات واللمزات، يا ابن الحرام ويا ثمرة العربدة، ويتلذذ الأشقياء بالعزف على أوتاره جرحه، وكذا الناس يتغذون على ألمك ويستلذون بأنينك، واستقر الجميع على تلقيبه بابن الزانية..

وتحمل على كاهليك أوزارًا لم ترتكبها ولا تعلم إن كانت ارتكبت، ويحاكمك الناس لما لم تعاينه، ويحاسبونك على ما لم تفعل، وينوء الجبل بحمل تحمله على صدرك، ويطعنك صديقك الأول في مقتل، وتعود لعزلتك، وتسكب الدمع على وسادتك، شد ما عايَنت كومة الريش..

بالليل فكر المسكين مع نفسه والهدوء يخنق أنفاسه. فيا ليلُ رفقًا بمنكسر احتمى ببحرِ سكونك الأبدي، تساءل: أليس منطقيًا ما يقولون؟ يتيم في ملجأ، لا يعرف أباه ولا يعرف عن أمه إلا صورة تجمعهما أثناء مرضها، ولكن لو كان ! فأي جريمة ارتكبتها لأحاسب عليها؟، أيحاسبني الناس على ما أنا عليه أم ما كانت أمي عليه؟، كيف كان يمكنني أن أمنعها من الزنا وأنا في طيات القدر ما زلت نسيًّا منسيًا، وتفرط الزانية في شرفها

فتلوث أصلها وفرعها، وأحمل عارًا ما أُشهدته، ويتودد إليَّ اللعين حتى إذا أمنته ظهري امتطاه، والناس كأنما يتوقون للشماتة، خنازير تركبت في صورة آدمية، وأنا المسكين بينهم! لستُ مسكينًا ولا أحتاج شفقتهم ولا أتألم لشماتتهم، قبحوا جميعًا وتتابعت عليهم اللعنات.

كان مصباح غرفته مُضاءً وهو على سريره مقوَّس الظهر ضامًا ركبتيه إلى صدره بذراعيه يتمتم بكلمات الغيظ والحقد، ولفت انسياب الضوء الأصفر من النافذة الزجاجية في الباب، نظر العجوز فطرقت الباب طرقًا خفيفًا، كان يسمعها لكن لم يبدِ جوابًا وتمتم: لا أحتاج شفقة من أحد.. زاد قلق العجوز فانعكس على شدة طرقها حتى انزعج فصرخ :

- ماذا ؟

هدَّأ صوته على قسوته من روعها وقالت:

- هل أنت بخير؟
- بخيرٍ ولا أحتاج شفقة من أحد.

استغربت وقالت:

- -أيُّ شفقة؟! لماذا لا تفتح ؟
- لا أريد !
- ولماذا لا تنام؟
- لا أريد!
- إذا فدعنا نتحدث ..
- لا أريد.. اذهبي للنوم !

تنهدت العجوز إذ يئسَتْ من استخلاص جواب منه، وواست حيرتها

محدثة نفسها "في الصباح رباح" ثم رفعت من صوتها تسمعه:

-تصبح على خير يا ولدي.

خير؟ أيُّ خير في تلك الحياة البائسة؟ وضحكات تعالت على أنقاض كرامتي، ضحكات خنازير لا يستحقون إلا القتل، وآه لو يشفى غليلي بتخضيبهم بالدم!، كلهم آثمون بدءًا بالعاهرة حفيظة مرورًا بالعجوزين اللعينين انتهاءً بأولئك الخنازير.. نعم لعينين! وأيّ ألعن منهما؟ يشبعان غريزة الأمومة فيَّ ولا يهمها أنا، ثم يتبجحان بعد ذلك بالشفقة عليَّ.. لا أحتاج شفقة من أحد ! اللعنة على كل حي .

مزق ساعات ليله يلعن كل حيٍّ وميِّت، وشق حالك الليل أذان فجرٍ يؤذن بفناء يومٍ وانبعاث آخر، سمع المؤذن فاستسلم للنوم على شدة ما صارعه، وخمد ودخان احتراق قلبه يفوح منه..

*****

كعادته بجوار حائطِ المدرسة، ظهره محنيٌّ إلى الأمام ووجهه متلبّد بالكُرهِ وعيناه حمراوان وهزله لا يخفى على ذي بصر، داخله وحش كاسر يودُّ لو انتقم، وخارجه عجوز سقيم يبدو كشحاذٍ طاعنٍ في السن، انقضت الأسابيع على الواقعة وما زال اللقب لصيقه "ابن الزانية "!، قرر ألا لا يتكلم ثانيةً، واتخذ من الصمت لغةً ومن اللامبالاة حصنًا عساهما يقيانه قسوة البشر..

زاد عليه الألم فآثر كتمه لكنه تسرب إلى صفحة وجهه فجعله يُردُّ إلى أرذل العمر وهو بعدُ لم يبلغ التاسعة عشر، وكاد العجوزان يعتادان صمته وسوء معاملته واستيقاظه بالليل يشق الصمت بصراخه ورفضه

للطعام ثم معاودة الأكل بشراهةٍ كأنما ينتقم، ولولا بقية من شك وقلق لما استدعيا طبيبًا نفسيًا ليفحص ابنهما .

ومن ذا يقدر على تطبيبك إذا لم تكن طبيب نفسك؟ وماذا عساه يملك لك وهو لا يحس بمكمن ألمك؟، وجرحك وعزتك وكرامتك؟ وذنب تُحاكم إليه ولم ترتكبه؟ فليتغمدك الصمت بملجأ ولتوارِ ضعفك بوجهٍ خشبيٍ قاسٍ ..

*****

استيقظ من النوم عابسًا، وضع المنشفة على كتفه وسار بعينين مغمضتين باتجاه دورة المياه، تحسبه عجوزًا بين الحياة والموت إذا رأيته، فجأةً توقّف إذ سمع صوت شخص غريب !، من ذا قد يأتي للزيارة؟ لا أعلم أن هذين اللعينين لهما أصدقاء أو أقارب !

ذهب ليراه بوجهه الناعس وملابس النوم، واستغرب مُحيّاه! وسيمٌ هادئٌ ذو ضحكة جذابة، يضع نظارةً رقيقة ويظهر عليه الترف، لا يبدو أنه رسى على شاطئ الأربعين..

نظر إلى العجوزين بعينين تنطقان بالاستفهام فسارعت الأم قائلة:

- أهلًا يا هادي.. بَلِّل وجهك وتعالَ لتسلم على الأستاذ أيمن صديق العائلة.

أيُّ صديقٍ وأين كان طوال هذه السنين؟ أشمُّ رائحةً غريبة !، حدَّث نفسه بهذه الكلمات ثم انصرف ولم يبدِ جوابًا وعاد إلى غرفته بلا مبالاة..

وبعد دقائق وجد الباب يُطرَق، لم يرد.. فتكرر الطرق وهو لا يرد، ثم فُتِحَ

الباب وتفاجأ بأيمن ! وقبل أن يُمنَح فرصة للاستغراب قال أيمن:

- انتظرتك لأسلم عليك !

بدا هادي وكأنه لم يسمع صوتًا فلم يحرك ساكنًا ولم يعره اهتمامًا.. اقترب أيمن وجلس بجواره على السرير ثم قال بهدوءٍ كأنه لم ينزعج من فعل هادي:

- هل تعلم أنني أتضايق حينما لا يبدي أحد اهتمامًا بي؟ أو حينما يشعرني الناس أنني أقل منهم.. لماذا لا ترد؟ هل تظن نفسك أفضل مني؟ هذا يضايقني!

اختطف هادي نظرة إلى وجهه لكنه تابع صمته، وأردف أيمن بعدما بدأ يستشعر بوادر أمل:

- يضايقني عدم اهتمام الناس بي، ونظرتهم لي من أعلى، ولكنني لا أهتم ولا أبالي ولا أبدِي انكسارًا أو خوفًا فأصمت، بل دائما أبحث عن المشكلة التي تجعلهم ينظرون إليَّ هكذا فأعالجها .

حدَّث هادي نفسه: وماذا تعرف عن المشاكل أيها الحقير؟ وماذا تعرف عن حلها؟ مشكلتي جريمة ارتُكِبَت منذ عشرين عامًا !

تابع أيمن :

- لكن أتدري؟ كانت أكبر مشاكلي تلك التي لا أعلمها ولا أعلم كيف وقعت ولا أين ولا لماذا !

نظر هادي إليه وقد بدا عليه الاهتمام وإن حاول إخفاءه، وتابع أيمن:

- وكنت أحلّ تلك المشاكل بأن أبحث عن أصلها وأعلم كل شيء

عنها ثم أواجه بها الناس فأخرس ألسنتهم .

صمت قليلًا ثم تابع :

- لذلك لا أحب أن لا يرد عليَّ أحد حينما أكلمه، أبْدِ اهتمامًا فما أنا بأقل منك !

شق هادي الصمت ناطقًا بشذر:

- ألسنة الناس لا تخرس!

تبسم الطبيب الحاذق الذي ضغط على دمامل جرحه لينفجر صارخًا فيسمع صراخه ويشخص مرضه فيعالجه، لم يأتِ ببدع من الكلام، فقط توقع تفكير أي مراهق قضى طفولته في ملجأ، وكرر الكلام الذي يعلم أنه يدور في خلده، فالتقط هادي الطعم !

ردَّ أيمن :

- بل تخرس ألسنتهم إذا كان لدى لساني ما يقوله .
- لا يستحقون عناء الكلام .
- لكن أنا أستحق.
- فكيف بماضٍ لا تعلم عنه شيئًا؟
- لا أبرح حتى أعلم.. فإذا علمتُ آمنت.
- لا أمان للذئاب، ولا طهارة لخنزير .
- يكفيني أني سأعلم، فلا أواجه نفسي بالصمت !
- الصمت هو السلام والكرامة .
- بل هو العجز والذل !
- الذل؟ وماذا تعرف عن الذل؟!

- أعرف أنني لا أستحقه .

ساد الصمت للحظات فتابع أيمن:

- يبدو أن لديك مشكلة لا تعرف عنها شيئًا، ما رأيك في أن أساعدك؟

تجهم وجه هادي وصرخ:

- لا أحتاج شفقة من أحد !

تراجع الطبيب وتدارك الموقف فقال:

- أحسنت! لا تنتظر مساعدة أحد، ابدأ بحل مشاكلك بنفسك، ولا تتركها ليعرض عليك الناس مساعدتهم ويُبدوا لك شفقتهم.

تنهد هادي ثم صمت، انقضى اليوم وانصرف الطبيب -أو كما قُدِّم إلى هادي-:"صديق العائلة"، وانشغل هادي بالتفكير في كلامه عن التفكير في سبب مجيئه، تكررت الزيارات.. السلام والعزّة والكرامة.. أين وكيف؟، وزاد انجذابُ هادي إلى أيمن.. كان مرآته، ينظر إليه فيرى نفسه، شعر بأنه يحس بكامن ألمه، فكيف به لو علم أنه طبيب وأن هذه مسرحية كبيرة باسم "صديق العائلة"، أتُراه يصفح عن كذبه لأنه أراد علاجه؟ أتُرى حسن نيته يضيءُ سواد كذبه وإظهاره لمشاعر لا يعرفُ عنها شيئًا؟

ولكن لا جديد.. فكل كاذب يملك من المبررات ما يجعل كذبه مروءة !

وذاب صمته في بحر تيهه فقرر البحث، وتنبش أيها المسكين في نفايات الماضي بحثًا عن كرامتك، وملجأٌ ستعود إليه بعد طول غياب لتصطدم بماضيك فتفتش عن ما توارى منه.

ويُعلم الطبيب والدي هادي بما بلغ، وينصحهما بتيسير سُبُل البحث له ومساعدته من طرفٍ خفيّ ليتجاوز أزمته .

يتساءل هادي:

- ماذا لو اصطدمت بحقيقة مرة؟

فيردّ أيمن:

- لا أمرَّ من التيه، ولا يستحق الاحترام من لا يجرؤ على مواجهة الحقيقة .

*****

وقف أمام باب الملجأ، جيريٌّ أبيضُ مصفرٌ، وردهةٌ وغرفٌ وأسرَّة.. ها أنا ذا بحضرة الماضي أُصارع ذكراه، ولكن لا بديل ! لا خيط للبدء إلا هنا، منه بدأت وإليه عدت .

خطا خطوَ متردد يهاب ما كان، وحُقَّ له أن يتردد، دخل فرأى الصبية متناثرين تناثر أيامهم.. كذلك كنت !

رأى مدام حفيظة فاشمأزَّ قلبه، لم تتذكره ولكنه تذكرها، ونحيبٌ يسمعه فلا يسمعه غيره، وأفكارٌ تطارده فيمزقها بهز رأسه بعنفٍ كأنما يستفيق، وابتسم إذ سمع تغريد البلابل .

توجَّه إلى مكتب المدير، كما هو المكتب لم يغيّره الزمن، إلا أن المدير قد تغيّر!، جلس أمامه وقال المدير مبتسمًا:

- أهلًا بك يا أستاذ .
- أهلًا وسهلًا .

- ها.. تفضل ..
- قد كنتُ هنا منذ قرابة العشرين عامًا إلى أن تبناني عجوزان، وعدتُ لأعلم من جاء بي إلى هنا، أريد معلوماتٍ عن الشخص الذي جلبني إلى هذا الملجأ.
- جئت إذًا تبحث عن ماضيك !
- بل جئت أبحث عن حاضري في رُكام ماضيَّ.
- دع عنك هذا وانشغل بحياتك !
- لا حياة لي!، قد وُلِدتُ ميتًا.. وها أنا ذا أبحث عن حياة !

صمت المدير قليلًا، أليس الصمت ملجأ الضعفاء؟، التفت وضغط على زِرٍ بجواره فقدمت السكرتيرة على الفور .

- لبنى.. خذي الأستاذ وتأكدي من شخصه ثم ابحثي له عن ما يريد .

تُصر إذًا على اقتحام ما كان، وكم ذا ذهب قبلك ولما يعُد، خُطوة إلى الخلف قد تمنحك خطواتٍ للأمام وقد تبقيك في الخلف أبد الآبدين، وليس عن المخاطرة بديل .

قالت له لبنى وهما يسيران باتجاه مكتب السجلات وفي يدها بطاقته:

- لا تقلق، لا شيء يضيع عندنا .

بل كل ما عندكم ضائع حتى أنا ! وعزتي.. وكرامتي.. وحاضري وماضيَّ ومستقبلي .

تابعت :

- لكنَ أتمنى أن تسعفنا الساعات المتبقية من اليوم لنجد ما نبحث عنه.

*****

بالليل يهدأ كل شيء إلا قلب عاشق أو منكسر، في نبضهما ضجيج لا يشعر به إلا مُعاين، وصوت قمرٍ لا يترجمه إلا مجنون، ومن ذا على ظهرها عاقل؟!

عاد المسكين يجر خطاه مهلكًا، متربًا كقائم من قبر، والعُود لا يكذب صاحبه ولَهًا، يسعل ترابًا استنشقه بين ركام المستندات العتيقة، ساعات قضاها يفتش بيده عن كرامته، عاد لبيته مخمورًا يترنح إرهاقًا، العزة والكرامة والاحترام.. شد ما أصابني اليوم من عيٍّ ونصَبٍ، من يهتم وقد بلغتُ ما أبحث عنه !..

"شفيقة صادق المنجي".. جاءت بي إلى هناك منذ تسعة عشر عامًا وأنا قطعة لحم، ثم رمت بي لأولئك الذئاب، لم تترك إلا رقم هاتف لها، وما عسى الهاتف يغني بعد تلك السنين!، أتُراها فوق الأرض أم في بطنها، آه مما ينتظرني وآه!

تبحثُ ولا يزيدك بحثك إلا تيهًا، والراحة لا تأتي إلا من الكد، فنَم وغدًا ترى إن كان ثَم لتائهٍ مُستقر.

تابع الطبيب حالته وصفًا من العجوزين، وطمأنهما بأنه إلى تقدم..

أتُراك تتقدم لحتفك أم تقترب من خلاصك؟، أوَ يخلص ذو العارِ من عاره؟، وعلامَ تبكي كلما ضاق بك أمرك؟، لو كان الدمع يغسل العار لما بقي ذو عارٍ.

اتصل بالهاتف لاهثًا وراء سراب تراءى، تتابع رنين الهاتف وتتابعت أفكاره تنذره بسذاجة منطقه، وحبل متآكل تتعلق به، إن انقطع بك انقصم ظهرك .

لم يجب أحد، عاود الاتصال.. ثم عاود الاتصال.. هاهو القدر يرحمك من مزيد من التيه فأفق! عاوَد الاتصال.. لا مجيب إلا صوت عقلك أن

توقف، وماذا يفعل العقل لمن اختار الجنون؟.

تلبدت السماء بالغيم، وسريعًا أمطرت في غير وقت مطر، نذير شؤمٍ هو أم بشير خير؟، وماذا أشأمُ مما أنت فيه؟!

عاوَد الاتصال وفجأة رد الهاتف، صوتٌ ضعيف لعجوز ينبعث من السماعة متسائلًا عن المتصل، ابتسم هادي فرِحًا، أهو الحظ يدللني وأنا على حافة الهاوية؟!

- أنا هادي.. هل هذا رقم مدام شفيقة؟
- تأخرت الإجابة، وأبرقت السماء فأرعدت، واستبق قلبه الجواب فقال نعم، ثم نطقت العجوز بصعوبة:
- لا ليس هو، الرقم خاطئ يا بني .
- لكن هذا الرقم مسجَّل عندنا في الشركة باسم شفيقة صادق المنجي!

عبثًا تحاول الكذب بحثًا عن بصيص النور، كأنك لم تنم بالأمس وأنفقت الليل تفكر في اليوم؟.. لا يوم لمن لا أمس له، ولا أمس لمن لا حياة له، وأنتَ وُلدتَ ميتًا !

أجابته العجوز وقد بدأ صوتها يخفت :

- لا، أنا مستأجرة لهذه الشقة منذ عشر سنوات، والهاتف باسم مالكها.

ثم أغلقت الهاتف ..

حتَّام تكذب عقلك؟، وإلامَ تناطح منطقك؟، أما آن لك أن تواجه نفسك بفشلك؟

مرت ساعات من الصمت لا يعكره إلا طرق قطرات المطر لزجاج النافذة، بل ربما تزيد في صمته !

انقشع الغيم بعدها سريعًا كما تلبد سريعًا، كأن شيئًا لم يكن !، وإن كان فما كان إلا ومضة في حلم، كابوس هو لا حلم، وتحلم بما يقودك إلى هلاكك!

بالليل عاود الاتصال، لا سبيل إلاكِ ولو أبيتِ، رد الهاتف فبادر:

- آسف على إزعاجك ثانية ولكن كنت أريد أن أعرف مالك الشقة، اسمه وهاتفه..

ردت بنبرة خائفة:

- لماذا يا بني؟ هل أنتم حكومة ؟!
- أحسنت يا أمي، ويجب أن تخبرينا باسمه وهاتفه وإلا اضطررنا للمجيء لشقتك والقبض على كل من فيها.

ارتعدت العجوز وبدأ الخوف يزيد في صوتها ظهورًا وقالت:

- لا يا بني، لا ذنب لي في شيء، أنا عجوز ضرير، لا أعلم شيئًا .
- ما اسمه إذًا؟
- اسمه سليم الضّو.
- هل تحفظين رقمه ؟

تابع كذبك، تكذب على ضميرك وعقلك فعلامَ تصدُق غيرك؟، ألقِ بنفسك للهاوية فلا أمرّ مما أنت فيه ولا بديل عن المخاطرة .

كتب رقم الهاتف بسعادة ثم أنهى الاتصال مع العجوز، كان الوقت متأخرًا للاتصال بالرجل، وفي الصباح يكون لكل شيء شأن .

وتمر ساعاتُ عمرك ماضية معها الأيام، وكرامتك.. وعزتك؟، أيبحث الميت عن كفنٍ أم عن قصر؟!

خالجَ النهار نافذته، وطرب قلبه لصوت رنينه على الرجل، ردَّ الرجل بلهجة لم يعتدها:

- ألووو
- أهلًا.. أستاذ سليم ؟
- نعم.. من؟
- أنا هادي، كنت أريد أن أستفسر منك عن أمرٍ.
- من هادي؟ وأي أمرٍ؟ لم أعرفك !
- نعم لا تعرفني، ولكنني أعرفك وكنت أحتاج أن أستفسر منك عن شيء هام .
- وكيف أجيبك وأنا لا أعرفك؟
- أنا فقط أريد أن...

قاطعه سليم بلهجة مغضبة:

- إياك أن تعبث معي ثانية أيها الأحمق .

ثم أغلق في وجهه الهاتف ..

ما زال القدر يمنحك فرصة للتراجع، وما زلت مُصرًا على الجنون !، أي فتى أنت؟!

عاود هادي الاتصال فردَّ الرجل بغضب لا مبرر له :

- ماذا تريد ؟
- أريد أن أستفسر منك عن شخص كان يستخدم هاتفًا مسجلًا باسمك .
- ألم أقل إنك تعبث؟!

- صدقني لا أعبث، إن كنت تريد أن أقابلك لتطمئن صدق جِدّي أتيتك .
- حقًا؟ تعال إذا أيها الفصيح.. أنا في أسيوط .
- ماذا؟! لكنني من الإسكندرية !
- أنت الذي طلبت، تعال أخبرك.. وإلا فلا .

صمت هادي قليلًا صمتًا محزونًا ثم قال بانكسار يخالطه يأسٌ:

- العنوان مفصلًا من فضلك .

غص بقدميك في وحل وهمٍ تظنه أمل، وما يدريك إن كان يخدعك؟، وما يدريك أنه يعرفها؟، وما يدريك إن كانت تدب فيها الحياة ولم يوارِها التراب؟ وما يدريك أنها أعطت رقمها الصحيح للملجأ؟، غص بقدميك في الوحل ثم اشكُ غدر الزمان!

*****

هنا حيث يلتقي كل مهموم، وما هنا إلا ناذر نفسه لقطعة من العذاب، أليس السفر كذلك؟، جلوسٌ كأنهم أموات يرقبونك بأعينهم، وقطارٌ ينتشلهم من الغربة إلى موطنهم، والغربة موتٌ وإن بدا باسمًا، كلٌ عائد إلى موطنه إلاك لا موطن لك، وأي موطنٍ يسع حزنك وهمك وكربك ؟
تأمل الرصيف فوجد ازدحامًا خانقًا، امرأة تحمل على رأسها سلة كبيرة تغطيها بشالٍ أبيض وما عدا ذلك منها سواد، رجال معممون مجلببون وأطفال كمثل آبائهم، وسلالٌ من البيض والجبن والفطير غادية ورائحة..
وصل القطار يشق محطة سيدي جابر فجرًا، تدافع الناس كالنمل إلى القطار، بصعوبة تدافع معهم، أدرك أحد المقاعد بجوار النافذة بأعجوبة، وليتك ما أدركته!
انطلق القطار يزأر بصافرته، ينظر هو من النافذة ويتسارع القطار كأنه يسابق الزمن، يترك خلفه الإسكندرية.. ومن ذا يترك الإسكندرية ولا يبكي!!
قطار عمرك، تمر على الدنيا سريعًا فلا تكاد تراها، ونظرك من نافذة القطار وأنت تودع كل شيء عذاب تتحمله فوق عذابك .

*****

شاطئ الإسكندرية.. ذابلًا جلس أمامه يخاطبها كمجنون:

من ذا يختار فراقك؟، لا تلوميني فما اخترت ذلك!، مكره أنا لا بطل، مغبونٌ فارقتك شهرًا، وما من ذهاب إلا وله عودة، وأنتِ موطن من لا موطن له !

شهر من العذاب ومجالدة الطوى ومناوءة الهوى والصبر على تركك.. أليس فيما جرى لي داعٍ إلى عذري؟

ذهبت إلى ذلك اللعين فتعجب لما رآني وقال:

- ظننتك تعبث !
- قلت لك لا أعبث، ها أنا ذا بشحمي ولحمي فاقض لي ما أريد .
- وماذا تريد ؟
- شفيقة صادق المنجي، تركت لأمي وأنا رضيع هاتفًا لها، وأحتاجها الآن شد الاحتياج فلا أهل لي، والهاتف باسمك.. فهل تعرفها ؟

نظر سليم إليه نظرة خبث ثم قال :

- أظنني أعرفها، لكن ما الذي يدفعني إلى مساعدتك ؟!

اندهش هادي وقال :

- وماذا تخسر إن ساعدتني !، أوفيت بوعدي وجئتك !
- لا شيء في هذه الحياة بلا مقابل، هكذا تعلمت.. أما شفيقة فكانت تستأجر أحد أملاكي منذ عشر سنين، وما زال بيننا تواصل منذ ذلك الوقت، فإن كان لك في الوصول إليها حاجة فادفع الثمن .
- وماذا تريد ؟

- بل ماذا تملك !

أي قاسٍ أنت وأي قلب تملك ؟، ما هذا التبجح وما هذا الاستغلال، والعزف على جرح الضعفاء والضغط على ألم المنكسرين، قبحت من كلب تنهش ما تطال من قمامة !

وبعد فترة من الصمت قال الرجل :

- ها.. ماذا قلت؟

يعاود القدر تنبيهك.. أفق !، فتكبح جماح عقلك وتطلق زناد جنونك، لا بديل!

- حسنًا.. موافق .

التفت سليم ونادى على أحد صبيانه بلهجة صعيدية:

- رشدي.. رشدي..
- أمرك سيدي.
- أحضر لهذا الولد مركوبًا وسلمه العمل في الحقل من هذه اللحظة .

ثم التفت إلى هادي وقال:

- لكن احذر، فهذه الطيبة مني لن تجدها إذا قصرت في عملك.

تسلم هادي العمل وكان دوره تنظيف حظيرة الحيوانات، صدار عبدًا لذلك الطاغية، شهر من العمل والكدح، لا شيء بلا مقابل، ولا أمرّ من التيه، العزة والكرامة والاحترام، وتبحث عن كرامتك بِذُلّك وعن عزتك بهوانك؟.. فغَص في وحل الوهم !

مرّ الشهر شهرًا من الجوع والقذارة والنصَب، وبعد أن بدأ أمله ينقطع انقضى الأجل، وأعطاه الرجل رقمًا قال إنه رقم شفيقة، وقرأ الارتياب يجول في عينيه من صحة الرقم فقال:

- لا تقلق، كلمة الصعيدي سيف على رقبته .

وطغيانك سيف على رقبة المساكين، وقسوتك أنستني ما كنت أريد، بُعدًا لك ولمن يأتيك في حاجة !

وعدتُ إليك أيتها الجميلة هزيلًا ضعيفًا فرفقًا بضعفي فما تركتك مختارًا

أنهى كلامه إلى الشاطئ وهو يكتب رقم شفيقة ثم بدأ في الاتصال بهاتفها، سرعان ما ردّت!، وكأن القدر تركك وشأنك فما عاد ينهك!، فتابع سيرك في الظلام وواصل تقدمك إلى التهلكة !

- ألووو..
- أهلًا.. سيدة شفيقة ؟
- نعم.. من يكلمني ؟

خوفٌ بلا تفسير راوده، وموجة من الشاطيء وصل رذاذها إليه، ثم قال متلعثمًا:

- أأنت مدام شفيقة صادق المنجي ؟
- نعم أنا هي.. من أنت ؟

كادت فرحتك تذهب بعقلك، من واصل الطرق يوشك أن يصل، ولكن لا أخطر عليك من فرحك !

قال بلهجة يمازجها فرح :

- أنا هادي.. أنا هادي، لقد فنيتُ بحثًا عنك !
- هادي ! من هادي ؟

صدم للحظات ولكنه أدرك موقفها فبين :

- أنا هادي، لا أعلم من اسمي سوى هذا وفقط، تربيت في ملجأ وتبناني عجوزان وعدت للملجأ بحثا عن من جاء بي فقالوا لي أنتِ !

ساد الصمت فترة لم تكن بالقصيرة، كانت بالنسبة لهادي أطول فترة انتظرها في عمره، ثم قالت مدام شفيقة مندهشة :

- هادي!! هل أنت هادي شريف؟ هل أنت هادي حقًا؟!
- لا أعلم اسم أبي الحقيقي، حاولت الوصول إليك لأني أحتاجك، هل يمكنني رؤيتك؟

ردت ونبرتها يخالطها الدمع :

- بالطبع يا ولدي، بالطبع !
- أين ومتى؟

*****

جلس وحده في أحد مطاعم ميامي، بالليل على أنغام موسيقى هادئة، كعاشق ينتظر معشوقته، ومعشوقتك العزة والكرامة..
قليل من الوقت أسعفه ليصل سموحة آخذًا حمامًا منعشًا بعد عنائه، ولبس ملابس نظيفة، لم يستغرب حينما لم يجد أحد في الشقة، من يهتم؟ فليذهبوا جميعًا إلى الجحيم.

جلس ينتظر مدام شفيقة بشغف، شغفه لنفسه!، أبحث عن نفسي وحاضري وماضي ومستقبلي!

أبواق سيارات تكسر رتابة الموسيقى، ودخلت سيدة فخمة يظهر عليها الثراء، تفقدت المطعم بنظرة ثم أمسكت هاتفه واتصلت بشخص فرنّ هاتف هادي.. إنها هي !!

- سيدة شفيقة ؟!!
- هادي ؟!!

سارعت إليه واحتضنته باكية وسقطت صورته مع أمه من يده على الطاولة، انتبهت فالتقطتها وجعلت تقبّلها وتبكي وتقول رحمة الله عليكِ يا وردة !

- وردة؟
- نعم، أمك اسمها وردة .
- وهل تعرفين أمي؟

ردت وهي تكافح الدمع :

- بالطبع يا بني، كانت أختي أو يزيد !

زادت السعادة في وجه هادي وبدأ يتنفس الصعداء، أين أنت وتنفس الصعداء؟!!

تابعت :

- أعلم أن هذا اللقاء عسير وغير متوقع، دعنا نبدأ من أول الأمر، ما الذي حدث ؟

وماذا تعرفين عن توقعي للقاء من عدمه !، كدت أفنى لأجله .

ابتسم بعد أن أحس بالدفء ثم أخذ نفسًا عميقًا وبدأ يحكي قصة تزيد سطورها يوما بعد يوم ..
وعى الحياة ليجد نفسه في دار أيتام..

*****

- يا ليت ما ألمّ بك ألمّ بي وما لامسك مكروه !

قالتها شفيقة وهي تبكي بعد أن انتهى هادي من حكاية ما حدث له، ثم تابعت:

- ما كانت أمك يا بني بغيًا، كانت شريفة عفيفة، عرفتها مذ كنا صغارًا، تزوجت من والدك شريف محسن المنير، وانفصلا وأنت في أحشائها، ثم أصابها سرطانٌ فماتت بعد ولادتك بأشهر، وكنت حينها كما كانت.. فقيرة معدمة لا أجد قوت يومي، أبقيتك معي ثلاثة أيام كدت تهلك فيها من الجوع، ولما خشيت عليك ذهبت بك إلى الملجأ، ووعدت وردة عند قبرها بعَوْد.. وبعد سنين طوال انقلب حالي وصرت كما ترى ثرية صاحبة مال، والدنيا لا تدوم على حال، عدت للملجأ سائلة عنك فما وجدتك، وانفطر قلبي إذ قيل لي أن عائلة تبنتك، ولما سألت عنهم رفضوا إعطائي بياناتهم بحجة أنني لست قريبة لك، ولما احتججتُ بأني من أتيتُ بكَ وما زالت بياناتي عندهم تشهَدُ، أجابوا بقسوةٍ أنه ما من سبيلٍ بعد أن تبناكَ غيري لأصلَ إليكَ إلا إن كُنتُ قريبتكَ من البداية!، وما بحثي عنك بعدها بأيسر من بحثك عني، ولم أصدق أذناي وأنت تحادثني

على الهاتف أول مرة، فاصفح يا بني عن عجزي وضعفي وقلة حيلتي، وها نحن قد عدنا والعَوْدُ أحمد!

وحوى قلبك فرحًا لا يسعه الكون، أمك طاهرة وكبد الحقيقة أصبت، وعلمت أصلك وفصلك وجمعت شملك بعد طول شتات، ما عدت طفل الملاجئ بل أنت هادي شريف المنير، ابن وردة وشريف، الزوجان العفيفان .

قال هادي والدموع تراوده :

- وأبي؟
- لا أعلم عنه شيئًا، إلا أنني سمعت منذ عامين أنه في القاهرة .
- أريد أن أذهب إليه.
- ألا تبقى معي؟ دعنا نبدأ حياة جديدة، معي المال والحنان ووصية أمك.
- وليس معك أبي .

صمتت شفيقة صمت عاجزٍ فتابع هادي :

- لكن أهي رحلة شقاء جديدة من البحث والمعاناة ؟
- لا أظن ذلك..
- كيف؟
- لك خال في القاهرة اسمه ممدوح، ذهبت بك إليه بعد وفاة أمك وما كنت أعلم أقارب لك غيره فرفض أن يتبناك وقال لي : "ارمِ به في الشارع ". يمكنك مهاتفته وتعريفه بك، لا شك أنه سيخشى إن كنت تعلم ما فعل، وفضوله يدفعه لملاقاتك، واقبل أعذاره الواهية التي سيقدمها لك إذا قابلك، عله

يساعدك في الوصول لوالدك، وعندها لكل حادث حديث فافعل ما بدا لك.

ابتسم هادي وبدأ في الأكل وهما يتجاذبان أطراف الحديث، وكانت شفيقة تتأمله وتترحم على أمه.. رحمة الله عليك يا وردة .

*****

هدأ السُّعار في قلبه وانطفأت جذوة الحقد، صار كما كان أول مرة.. هادي!

كأن ذاك الأخير ما كان إلا كابوسًا تملكه فترة ثم انقشع، وحين يهدأ قلبك من حميته تبدأ بمراجعة أخطائك، خلفك ترى دمارًا أحدثته وغضبك يعميك، أمك وأبوك العجوزان تلقفاك من الضياع ولم يضنّا بقلبهما عليك، لاقيت المعروف منكرًا والإحسان إساءة، وبالليل يستيقظ ضمير طال سباته..

وحده في الشقة يجلس ولا يعلم أين هما، ازداد قلقه فاتصل بهما وكانت الفاجعة، العجوز في المشفى مرضت إثر غيابك وزوجها معها، مسرعًا توجه إلى هناك وقلبه يرهف خوفًا، فأين كان ذا القلب منذ زمن؟

دخل فوجدها على السرير قد هزلت، وخط الدمع طريقًا تحت عينيها، منكسرة كطفلة تُرِكَت وحدها، والمرأة إذا شابت عادت طفلة، يتيمة هي يغلبها البكاء، ومن أيتم ممن فقد ولده؟، ميْتةٌ وإن كانت تئن فلما رأته ارتدت حية.. تساءلت: أهوَ هوَ؟ أم أن الموت يعبث بي قبل مغادرتي جثة هامدة؟

رآها هادي فارتمى عليها يقبّلها ويبكي ثم قال :

- ما الذي حدث يا أمي ؟

ردت المسكينة بعد أن تأكدت من صدق ما رأت :

- ولدي!، أين كنت؟، أما قلت إن فقدك جرح لن يلتئم!، كسرت قلبي فما عاد له من جبر، لماذا لا ترد على هاتفك؟، ولماذا انصرفت؟، ظننتك مت !
- بل كنت ميتًا فحييت، وأمي طاهرة وأبي حيٌ يرزق، وعلمت اسمي.. هادي شريف المنير .

قاطعه صوتٌ مألوف :

- أحسنت، الآن ترتاح .

التفت فوجده أيمن، لم يشعر بوجوده إذ تملكه مشهد العجوز، أما أيمن فكان يتوقع قدومه فانتظره .

ردَّ هادي:

- الراحة والعزة والكرامة .
- وتخلصتَ من ذل الصمت ونار الأرق .
- نعم.. شكرًا لك .
- بل شكرًا لشجاعتك في مواجهة نفسك .

اعتدلت العجوز في جلستها على السرير بصعوبة وعاد زوجها من الخارج ومعه بعض الأدوية، فلما رأى هادي تفاجأ حتى سقط الدواء من يده، وهرول إليه واحتضنه .

فواعجبًا لأب وأمٍ بلا نسب كانوا أحن عليك من لحمك ودمك، ما أبعد قريبك وما أقرب بعيدك!، وتلك التي مرضت لفراق شهر كيف بها لو علمت فراقًا بلا عودة يلوح في الأفق !

ولما هدأ التهاب المشاعر بدأ يحكي ما اكتشف، أمي وشفيقة.. خالي وأبي.. القاهرة وأسيوط .

وكلٌ يبكي على ليلاه، ليلاهُ البحث عن أبيه، وليلاهما هل من فراق أم أهو المستقر؟، ويشغل الطبيب شفاء هادي .

ولما انتهى أسفر عن عزمه.. القاهرة !

قالت العجوز بألمٍ يخالطه حرقة:

- ويا ولدي تصرُّ على معالجة الفراق فماذا أقول لك؟ أوَ أطلب منك ترك أبيك وهو حي يرزق، أم أوافقك في تركي وأنت حياتي!، وما أمرّ من حيرة المشاعر، فلي فرحٌ لفرحك وبي حزنٌ لتركك، فلا أقل من وعدٍ بعَوْد، والوعد سِلوان الأحبة !
- أعدك أن أعود ومعي أبي، وأهاتفك كل يوم حتى آتيك .

وفراقٌ يدمي قلبها لكنها تؤثر قلبك، ووجعٌ تكتمه عنك لئلا يؤذيك، فرفقًا بها ورفقًا فما عاد في قلبها متسع لجرح !

ودَّع من يعرفهم وقليل ما هم، لملم أشياءه وهاتف خاله وكان كما قالت شفيقة، ثم عاد إلى محطة القطار بعد أيام .

وتترك الإسكندرية مختارًا بعدما أسمعتها من شعرٍ، أليسوا في كل وادٍ يهيمون؟!، وتعلق قلبك بأبيك حيث السلام والأمان والحب .

وصل القاهرة ليلًا واستقبله خاله يتصنع الشوق واللهفة، ادعى هادي أنه لا يعلم شيئًا، قبل أعذارًا واهية من خاله تعللها بفقرٍ ومرضٍ وضعفٍ وسجن، وهادي يدعي عذره.. واتفقا على البحث عن أبيه في الغد، وللنهار عيون .

*****

هنا القاهرة !

من ألِفَ الإسكندرية لن يألف القاهرة، طرفا نقيض هما، هادئة باسمة منعشة وديعة هي الإسكندرية، تأسر لُبّك عند أول خطوة، أما القاهرة فمدينة ذاتُ أنياب، كل ما فيها يجري بسرعة وإزعاج إلا أنت تتحرك ببطء، أبواق سيارات وهتافات باعة وصيحات أطفال وسباب نسوة، مترامية الأطراف شاسعة لكنها مزدحمة حد الاختناق !

سار هادي ومعه خاله الذي يريد التخلص منه في أسرع وقت، والحق أن كليهما يبادل الآخر نفس المشاعر وإن اختلفت دوافعهما .

سارا في وسط البلد.. رجالٌ يجرّون عربات مليئة بالكراتين مثلهم كمثل النمل في انتشارهم، وامرأة أمام دكانها ترش ماءً على الأرض هاتفة : "يا فتاح يا عليم"، ولا صوت يعلو فوق صوت المعركة، معركة سيارات الأجرة، رجلان يجلسان أمام دكانهما يلعبان النرد، وأطفال حفاة يركضون خلف أمهم تتكفف الناس، وازدحام أمام أحد محلات العصائر، والشمس تلهب الأرض منفذة من صبر البشر .

دخلا زقاقًا ومنه إلى زقاق، حتى وصلا قهوة تحت أحد البيوت تفوح منها رائحة المعسل ممتزجًا بالحشيش، دخلها خاله يخطو خطوَ عالم بتفاصيل المكان.. ثم سأل عن حوده، وما هي إلا لحظات وجاء شاب قصير يرتدي طاقية خضراء زيتونية، عينه اليسرى ظاهر عوَرها، أفطس الأنف أسمر الوجه، قال له ممدوح:

- أريد منك خدمة سريعة .
- ومنذ متى وعندي خدمات بطيئة؟

بصق ممدوح ضحكة خشنة ثم قال له:

- شريف محسن المنير، أريد أن أعرف مكانه، سآتيك غدًا صباحًا

وقبل أن يرد حودة رمى له ممدوح عشرين جنيهًا على الطاولة، فتراجع حودة عن استعداده للكلام وكأنه كُفي عناءه .

وسريعًا انصرف ممدوح ومعه هادي كما قدما سريعًا.

*****

- شريف محسن.. أليس كذلك ؟

قالها حودة وهو يجلس مع هادي وخاله ممدوح على ذات القهوة في اليوم التالي، ورد ممدوح :

- بلى.. ها؟ هل وجدته ؟
- بالتأكيد، هل هذا هو ؟

ثم أراه صورة أخرجها من محفظته المهترئة .

تأملها ممدوح قليلًا ثم علا التعجب وجهه وقال:

- ما هذا ؟

قام هادي ينظر للصورة وقال حودة :

- أليس هو؟
- بلى هو، ولكن ما هذا التغيُّر! لحية وزبيبة صلاة !!

قال حودة ساخرًا :

- طلبت مني مكانه ولم تطلب مني إحضار حلّاق له !

بدا الضيق على وجه هادي من سخرية حودة ثم قال يخاطب خاله:

- وماذا يهم، المهم أنه أبي !

مرت عربة يجرها حمارٌ وينادي صاحبها : روبابيكيا!!!! روباَبيَكيا!!! ..

- تجاهلها ممدوح ونظر إلى حودة ثم قال :
- ها؟ ماذا وجدت؟
- قيل لي إنه شيخ مشهور، له جمهور عريض، ومحاضرات كل يوم، واليوم له محاضرة بعد الظهر في ساقية الصاوي .

نظر هادي إلى خاله وقال بلهفة :

- بقي أقل من ساعة، علينا أن ندركه .

توجها إلى ساقية الصاوي، سريعة هي الأحداث في القاهرة، كل شيء يطارد الآخر وتسحق أنت بينهم !

في الطريق زفَر هادي:

- آه يا أبي !، لماذا انفصلت عن أمي وتركتني كل هذه السنين !

ردَّ خاله:

- إنها قصة طويلة !

انتبه هادي كأنه كان يفكر بينه وبين نفسه وخانته الجمل فعلا صوتها، لكنه قال لخاله :

- اخْلِك!

تعاطى خاله نفسًا عميقًا ثم قال :

- كانت أمك آية في جمالها يضرب بها المثل وتوزن بها الحسناوات، ولهذا تزوجها أبوك.. واستمر معها حتى ضربها المرض وهي بك حبلى، وكما كل مرضٍ خفت جمالها، ولما رأى أبوك ذلك عزم على طلاقها، فلما أحست منه الجفاء توسلت إليه بكل غالٍ ونفيس أن لا تطلقني ولن أضايقك، أشهرٌ وأموت بدَعةٍ وترتاح مني واستمتع بعدها بحياتك وافعل ما بدا لك، لكن أبق عليَّ حتى يتربى ابننا معك، لم يرحم دموعًا تساقطت من عينيها، وطلقها واختفى وسافر للقاهرة تهربًا من التزاماته المادية .

صدم هادي أيَّما صدمة ! وغاب برهة في صمته كسكران !

أبي رماني لألاقي الويل؟ وتزوج أمي لجمالها فلما لاقت شدة رمى بها؟! أي خسيس هذا الذي أبحث معه عن أمان؟، وتركتُ حياتي وودعت أهلي وبلدي لأجلك أيها الذئب !

انتهى حديث خاله على باب ساقية الصاوي، ودخل هادي تقوده قدماه وما زال أثر الصدمة على وجهه، ورأى أباه لأول مرة على المنصة، والناس يتدافعون للسلام عليه، ومحاولات فاشلة لتقبيل يده، وكفاح للحصول على صورة معه، وتقديم فخمٌ من مُقدِّم الندوة.. فضيلة الشيخ الدكتور شريف محسن .

وقلب هادي يحترق، لم يتحمل المشهد للحظات فخرج مغضبًا وانتفض فؤاده صعقًا..

أيها المنافق الخسيس، تدعي الفضيلة أمام الناس وأنت تارك ولدك يحتضنه الشارع !، وأبحث عن الأمان مع الذئب وعن الكرامة مع الخنزير!. اهنأ بمجدك أيها الشيخ فهاهنا ولدٌ ضيعت عمُره بعد أن جئت به للدنيا في لحظة شهوة!. تمتع بشهرتك وأنت تدهس أنقاض مسكين تقاذفته المقادير حتى صدمته بك!. قبحت وقبح كل منِ عليها! ما أنتم إلا ذئابٌ وخنازير.

تبعه خاله للخارج فصبَّ عليه هادي اللعن والسب وصرخ فيه:

- قد رميت للشارع كما أوصيت أيها الوغد، وها أنا ذا مُشرّد لا أجد نفسي، مكلومٌ تغرقني دماء جرحي.. قبحتم جميعًا أيها الخنازير، لا أحتاج شفقتكم ولا أحتاج شفقة من أحد.. ثم تركه وسار مغضبًا بلا وجهة .

وتهيم تائهًا بلا هدف، مدينة أنفاسها تخنقك، وبشر وجوههم تقتلك، وكيف تعود للإسكندرية بعد أن هجرتها، كيف تعود وفيها أسوأ ذكرياتك؟

راودك الجوع عن نفسك ليزيد معاناتك، ورائحة النفاق تزكم أنفك، وصرت ترى كل حيٍّ منافقًا !

واشتريتُ يا آنستي طعامًا من أحد المطاعم بعد أن أرهقني السير، وبحثت عن مكان أجلس فيه أستجمع شتات أمري، فأول ما صادفت كان قهوتكم.. وجلست أعاني ويل صدمتي حتى أتيتِ أنتِ ودانيال وكان ما كان.

*****

خاشعة تسمع قصته، غافلتها دمعة ففرت من أجفانها فطاردتها بأطراف أناملها، أترى فصاحتكِ عجزت فعبرتِ بدمعِك ؟

ألح عليها الصمت فنازعته العرش وبدأت تحكي قصتها بدون مقدمات أو تعليق، علّها وجدت قصتها أبلغ تعليق ..

- نشأتُ لأسرةٍ محافظة، فتاةٌ أنت فاخفضي من صوتك، فتاةٌ أنتِ فغضي من طرفك، فتاة أنت فاعدلي في خطوك، فتاة أنت فابكري في عَوْدك، وكنتُ أكافح أحلامي لأتكيف حيث نشأت، فعندنا يا صديقي لا حلم مع الحياة ولا حياة مع الحلم، لا فتاة عندنا تتأخر للخارج بعد المغرب، لطالما كررها القاسي بصوتٍ جاف..

قاطعها هادي :

- من القاسي؟

فردَّت وقد ابتسمت ابتسامة حزينة تفقد بهجتها :

- أبي .

تنهدت ثم كشفت عن ساقها اليسرى وأرته ندبة غائرة بين لحمها قد عفى عليها تتابع السنوات، ثم قالت :

- هذه حصلت عليها لما تأخرت بعد أحد دروسي وأخذني الحديث مع صديقاتي، ولقسوة الضرب ما زالت إلى الآن طابعة على قدمي لم تغيرها السنون .

وإن غيبتها أيغيبها قلبكِ؟ ويا ليت جرحكَ يُرى مثل جرحها فتخف وطأته!

تابعت :

- وعشت على هذا الحال أتحمل زخّات الألم وأصفاد التقاليد وقسوة القريب وجفاف قلبه.. وكان لي جار اسمه مازن، وقعت في حبه، حب مراهقة هو لكن له لوعة!، سرعة مجيئه وانصرافه كشدة عصفه بقلب صاحبه، خاب من قال إنه وهم!، والوهم أصدق من كثير حق..

أخبرت صديقتي ميادة بسر حبي له، وكان سرًّا حتى عنه، فما كنت أبدي من حبه شيئًا إلا تخيلًا بين أوراق الليل.. وحكت ميادة لأمها فحكت لأبيها فحكى لأبي وهما في العمل، وانفجر السر بينهم ولما يصل لصاحبه مازن، وكأنني ارتكبت بدعًا من الجرم !، وهل على قلب هوى من لوم ؟!

اتصل بي أبي وصوته يزأر بالدم، وتوعدني بقتلي إذا رجع، ولعمري لما أدري أوعيده جد أم هزل، ولكن لفرط خوفي خرجت من المنزل أهيم على وجهي، وكل لحظة تزيدني خوفًا من الرجوع، فذلك الوحش سيحاسبني على حبي وتركي للمنزل معًا، وآه من ألوان العذاب تزيد مع اللحظات ينتظرني وآه ..

قادتني قدماي بلا هدف، وما كان معي من مال أو ملبس، ومرقت من حياة بائسة فتلقفتني أبأس، وعزّت نفسي عن التكفف أو مقايضة عرضي بمال، وزارني شبح الجوع، والجوع خسيس يلتهم العجاف، تحملته يومين حتى تقطعت أحشائي وأكلت بعضها بعضًا، وخارت قواي فانهرت مرتمية على حائطٍ ألتمس ظله، ولو وجدت الظل في بيتي لما بلغت ما بلغت..

دارت الدنيا بعيني فجأة، وخف تركيزي وتشوَّش سمعي ثم خفت الضوء وكنت في وضح النهار، وما شعرت إلا بارتطام

رأسي بالأرض، وغبت عن الدنيا ولا أدري كم مرَّ إذ ذاك، فما شعرت إلا بيدٍ تهزني وتبلل وجهي بالماء، وفتحت عينيَّ لأجدني في شقة لا أعرفها وأمامي وجه يختفي بين غابات من الشعر اكتشفت بعدها أنه وجه دانيال، تعرفت عليه، أطعمني وسقاني وكساني وآواني، وألفته وزوجه فألفاني، وأقمتُ معهم مُدّةً طويلة علمني خلالها البرمجة لأكسب منها قوتي، وساندني دانيال حتى حملتني قدماي في وجه الريح، واحترفت عملي ونمى دخلي، ومن عجيبٍ أن أهلي لم يصلوا إليّ! رُبّما لم يُحاولوا!، بل إني أتخيّل القاسي وهو يقول: إن عادَت فلن أُدخلها المنزل. واستأجرت شقة لنفسي، وجئنا معًا إلى هذه القهوة، وفيها تعرفت على كل أصدقائي، صاروا عائلتي وصارت القهوة بيتي، وكلنا لنا قصص مختلفة يجمعها الألم!، وتكفلت الأيام بأن تنسينا ما حدث وتبهجنا بما نحن فيه من ود ومغامرة .

قالت جملتها الأخيرة والكذب يفضحها في ملامحها الحزينة، وعلا التعجب وجه هادي وبدا الأسى عليه، صمت برهة ثم تمتم بصوت مسموع يخاطبها :

- يا لعجب ما جرى لكِ، صدق من قال: من رأى مُصاب الناس هانت عليه مصائبه!
- أوتعجب من قصتي؟ فكيف إذا سمعت قصص باقي أصدقائي عن ماضيهم السحيق!
- فوا عجبًا للناس.. يسمونه ماضيًا وهو ما زال معنا يراودنا عن أملنا فلا يزال بنا حتى يسلبه .

- نعم يقولون هذا وإنهم لصادقون، فما الحاضر إلا ناعٍ ينعي الماضي من طرف خفي، فألقِ عنك عناء الذكرى فما هي إلا جثمان ميّت واراه تراب الزمن .
- وتظنينني أقدر؟ يا ليت الذكرى رجلًا يُرى فأصطلح معه .
- أوَ أكل الزمان عليك وشرب فلم يُبقِ لك عقلًا؟ ذا ماضٍ أليمٍ قد ولى، وها أنت ذا فنان يائس فأمسك ريشتك وأبدع مستقبلك على لوحة القدر، أم ركنت إلى النحيب وألفت الغم فما عدت تريد منه مخرجًا؟
- وأي الناس يرضى بالغم عن السعادة بدلًا؟ ولكن ما من مخرج!
- فاصنع لك مخرجًا.
- ليتني أستطيع، قد بتَر الزمان كل يدٍ لي ورجل.
- كذلك كنتُ فصارعته فما لبثتُ صرعته، وصعنت لنفسي أيادي أخرى وأرجلا.
- ومن لي بروحٍ كتلك التي بين جنبيكِ؟ قد تقاذفتني المقادير فتركتني وحدي أهيم على وجهي في فلاة ما تلبث رياحها تقتلعني فأستريح من الدنيا وما فيها.
- ما عدتَ وحدك، نحن هنا عائلتك ووطنك .

نظر إليها هادي مستغربًا وكأنه لم يفطن لمرادها فتابعت الأخرى:

- ستأتي معي الليلة حتى أعرّفك على باقي العائلة في الصباح، وندبّر لك مسكنًا وعملًا، وانفض عنك تراب الماضي كما نفضناه كلنا، ودع عنك اليأس، واقضِ عمرك كما ينبغي أن يقضى، وأكمل حياتك كأنك ولدت اليوم.

تنهد المسكين ونظر حوله وكان الليل قد بدأ يرخي سدوله، ووجد نفسه تائها حائرًا في سجن كبير يسمى العالم، يلفت وجهه يتأمل الدنيا فلا يرى إلا كتلًا باهتة، وأنفاسًا تخرج من الكائنات زفرات محرقة، وكانت السيارات تمر فلا يشعر بها إلا أضواءً عابرة، وعلى الرغم من ضوضائها فكأنه لا يسمع لها صوتًا لشدة تيهه في تفكيره !

كانت الفتاة تتأمله مشفقة وفي عينيها بريقٌ لا يقل عن بريق ثغرها الباسم، ويلتفت يراها ويتأمل عينيها، فكأن الدنيا فيهما لها شكلٌ آخر، خضراءُ بسامةٌ.. فأنى يراها هو دنيا باهتة ؟!

قاطعت تفكيره طالبة جوابه :

- ها ؟

انتبه لطول صمته فقال مرتبكا :

- لكن أنا وأنتي وفقط ؟

ثم غمغم متلعثما بما لا يفهم، وابتسمت إذ فطنت لسبب تردده فقالت:

- لا، بل سأدعو أصدقائي ليسهروا معنا الليلة وتكون فرصة للتعارف بينكم، فهم عائلتك الجديدة كما صاروا عائلتي من قبل، وفي الصباح أذهب لعملي وتنام أنت مرتاحًا من كل ذلك العناء .

صمت المسكين إذ ما عاد باليد حيلة وفهمت من صمته الرضا فقامت وقام .

*****

فوضى منظمة، موحشة بأنس ومؤنسة بوحشة، كئيبة ببهجة ومبهجة بكآبة، ضيقة باتساع وواسعة بضيق..

كل هذه المتناقضات جُمعت بين جدران شقتها، ولا يمكنك أن تفهم تناقضها مالم تفهم تناقض صاحبتها، فدنيا سعيدةٌ بحزن، باسمةٌ بألم، هادئة بصخب، صاخبة بسكينة، ومتناقضة.. دنيا كما الدنيا، وأين يختفي التناقض إلا في المنام؟ لا يختفي فيه بل يبدو متناسقًا !

مجلسٌ في حجرة النوم، بسيطٌ كباقي الشقة، أحد جانبيه حافة السرير يجلس عليها دانيال وبجواره دنيا وعمر، وفي المقابل كنبة صغيرة عليها هادي وأحمد ومنى، وبين الجهتين شيشة يبدو أنها لم تعتد على خروجها من قهوتهم ..

بدأت الجلسة بتعارف ودود، وبعد لحظات عمَّ الدخان أرجاء الغرفة المعمورة، سأل عمرُ هادي عدّة أسئلة بشكل مازح علّه يرفع التكلف، بينما كانت منى مشغولة بلف سجائر الحشيش، عبث أحمدُ بالمزَّة بيده إلى أن أخذها دانيال منه..

انقبض قلب هادي لكن سرعان ما اعتاد الوضع مع كثرة الحديث، وقالت دنيا :

- الليلة ليلة القصص، فليحك كل واحد قصته التي عرَّفته بالبقية .

كان يبدو أنها منحتهم نبذة عن الموضوع وهي تتفق معهم على المجيء فبدا الكل متجاوبًا معها، ودارت الشيشة دوران الحكايات، كلٌّ يندب أيامه، حكايات يجمعها الألم وينظمها الإحباط، يكافحون لإظهار البسمة !

ألا ترى تخلف مجتمعٍ نعيش فيه؟ وسذاجة منطق تعلقنا به؟ وهمومًا تراكِمت على جيلنا فبأي ذنب نتحملها؟! أحمق ذلك المجتمع.. لا يهمه سوى الجنس والخرافات !

كان هادي يحرك رأسه تأمينًا على كلامهم، وبدأ مفعول الحشيش يظهر فانفكت القيود وانقشع الحرج، وهو وإن لم يشرب إلا أن عقله سافر في رحلة السطل مع الرائحة المنتشرة في سماء الغرفة، وطافت الدنيا في عقله فبدت الألوان أزهى وأبهج مما هي عليه، والأشخاص أكثر مرحًا، وما علاقة فراشات الهند بأعاصير الأمازون ؟

قليل من الوقت مضى في كثير من الساعات، والأحاديث دوارة دورات الحجر في المنتصف، وهو إلى تلك اللحظة لم يجربه ..

ناولته منى لَيَّ الشيشة فأمعن النظر إليه ثم تساءل عن أبيض في أحمر فيتركه أسود!، ودوّت ضحكة من الجميع فالتقم الشيشة، واستنشق منها نفسًا طويلًا فظلَّ يسعل بعدها حتى ظن أن عينيه ستتدحرجان على الأرض من مكانهما لشديد ما سعل !

ربت أحمد على كتفه وهو يتناول منه اللَيَّ ويقول :

- تماسك يا بطل .

وعلا صوت دانيال قائلًا وعليه أثر السُكْر من زجاجة شامبانيا فارغة في يده لا يعلم أحد متى خرجت ولا متى فرغت:

- يا أبانا الذي في السماء تعالَ شاركنا المرح !

وعلا صوت الجالسين بالضحكات فقال عمر:

- دعه فهو يطارد ماردًا من الجن على أطراف المجرة ..

نظر إليهم هادي مستنكرًا وما زال يخرج من صدره بقية من سُعال وقال بلسان متثاقل:

- انتبهوا.. قد أكثرتم من الشرب!

فتابع دانيال وقد زادت حماسته:

- وسامحنا لأن الحشيش ليس أصليًا واحلِل علينا بركة الأفغاني!

ضحكت منى وقالت لعمر:

- ولماذا يطارد جنًّا ؟

فردَّ وهو يعالج سيجارة محشوة قد فكت :

- لقد سرق موزة من موز الجنة !

انتفض هادي على غياب عقله، وهاج وارتعد، وصرخ :

- أفيقوا، قد غيبكم الشرب !

ثم نظر إلى دنيا يستنجد بها، فقالت:

- دعهم، فكلٌّ حرٌّ فيما يعتقد .
- نظر مستفهما وقال بنبرة استنكار :
- يعتقد؟!!
- نعم، لم يغيبهم الشرب، بل يتندرون بذلك لأنهم لا يؤمنون بوجود إله من الأساس .

سرت رعدة في جسد هادي فاهتزت فرائصه رهبة، ولفرط صدمته ذهب أثر الحشيش عن عقله لوهلة، ثم قال بنبرة مختلفة :

- وماذا يعني ذلك ؟
- يعني ما سمعت، لا يؤمنون بوجود إله، ملاحدة .
- وأنتِ؟
- كمِثلهم، ملحدة .

كان الجميع ينصت لحديثهما مترقبًا إلا دانيال؛ فقد ثمل حتى سمع أغنية في رأسه صار يتراقص عليها طربًا .

لم تسع هادي صدمته، استند على الجدار يحاول القيام لكن لم تحمله قدماه من أثر السطل فسرعان ما خر على الكنبة من جديد .

إلامَ تأخذك الملمات؟ وإلام يقودك القدر؟ أفي الله شك أم عندك الخلل؟

نظر إليهم مغضبًا وقال لدنيا :

- وكيف لا تؤمنون بوجود الله ؟!

ردَّ عمر وهو يشعل السيجارة من جديد :

- ولماذا نؤمن بوجوده ؟

فقال أحمد :

- ألكل موجودٍ موجد ؟!

فردَّ هادي:

- بالطبع !
- إذًا فَمن خلق الله ؟!

تردد هادي قليلا ثم قال :

- لا أحد، لم يُخلق !

- إذًا فلماذا تطالب بخالق للكون؟!

بُهت هادي لحظة ثم صاح دانيال كأنه في وادٍ غير واديهم:

- هششتها، فطاااااارت.. ثم طااااارت ..

تابع عمر:

- الله مليء بالتناقضات، صنعه الناس ليهربوا من مواجهة عقولهم، قاهر يرحم وراحم يقتل، وشافٍ يُمرض وضارٌ يشفي!، وهمٌ تمكن من عقولنا فحرمنا لذة الدنيا!

تملكت رعشة غريبة من جسد هادي ولاحظت دنيا..

- أواهنةٌ قناعاتك؟ أم واهنٌ أنت؟ أم أن للحشيش مفعولًا تستيقظ من هلوسته غدًا؟!

قالت دنيا :

- دعونا نغير الموضوع .

فقال أحمد :

- هل يستطيع ربك أن يخلق إلهًا مثله؟

وقال عمر :

- هل يستطيع ربك أن يخلق حجرًا لا يقدر على حمله ؟

صرخت دنيا:

- قلتُ كفى !

وتراقص دانيال على أنغام بيانو أسمعه إياها ثَملُه، وقام هادي يستند بيده على الحائط لا يكاد يقدر على الوقوف، والسير في الطرقات ليلًا، وخشَخشة الأشجار، ونقيق الضفادع، ونجوم تلمع، ووهم تملكك، وتصرخ دنيا، وتدور الحجرة، ويعلو الصوت، ويوهمك الحشيش بعويل، ويزداد الصداع فيكاد يُفجّر رأسك، وتستلقي على ظهرك غاطًا في سُباتٍ عميق إذ زاد دخان الحشيش.

*****

- هادي.. هادي !

فتح جفنيه بثقل على صوت دنيا ويدها تهزه برفق، ضايقه شعاع من الشمس..

- آه.. كم مضى على نومي ؟
- كثير، نمتَ بالأمس فلم أشأ أن أوقظك، وذهبت لعملي وعدت وأنت ما زلت نائمًا، والشمس توشك على المغيب .

تذكر الأمس وما دار فيه فاشمأزت نفسه، نظر إلى دنيا فسحره جمالها، كانت تبدو ملائكية وعيناه لم تقويا بعدُ على استقبال الضوء إثر النوم، قام يمسك رأسه من ألم تبقى ليلة أمس، وقالت دنيا إنها ستنام قليلًا ثم تستيقظ لتجوب به شوارع القاهرة .

استند في الحجرة أمام المرآة بعد أن ذهبت دنيا للحجرة الأخرى لتنام، ونظر إلى الأعلى وهمس :

- يا أنت ! إن كان أنتَ فأين أنت؟!، تحدو إليك روحي من دون رؤياك.. فإن كان ثمَّ دليلٌ عليك فأينَ ثمّ ؟
أتُراك إن كنتَ فأين كنت وأنا أُصارع الغم؟!، آمنتُ بك ولم أسأل لمَ، وحان وقت سؤالِك عنك.. وبحق عجزي وقدرتك أجب فما عدتُ أطيق حيرةً ولا عاد يطيقني الهم.. أوهمٌ أنت أم حق؟! وهل حقٌ يخفى كما تخفى؟! فيا حقٌ أشعرني بك.. أرني ما يدل عليك !! وهل يدل عليك إلاك؟ فأين أنت؟!
وإن كنت تسمع فكيف تسمع ولا تهتَم، أيا كاشف البلا.. ترى ولا نرى.. كيف تخفى وأنت الظاهر؟، وكيف تعذب وأنت الراحم؟، وكيف تغفر وأنت القاهر؟
بحق علمك الذي وسع كل شيء أعلمني عنك، فنفسي أرق من أن تصارع كل تلك الحيرة المتشعبة، وقلبي أرهقه السقم.. وأين كنت وأنا تمزقني الحوادث؟!
- نظر إلى نفسه في المرآة وبلا سبب تأمل وجهه لدقائق ثم انخرط في بكاءٍ ما كان أحوجه إليه.

*****

ساعات لم تقنع معين دمعه أن ينضب، على كتفه ربتت دنيا فتفاجأ!:

- متى استيقظتِ؟!
- منذ دقائق، وآلمني صوت بكائك.

صمت هادي ورمى ببصره للأرض فتابعت وهي تمسح دمعه بأناملها:

- قطعت شوطًا كبيرًا لتكافح الحَزَن، ولم يبق لك إلا خطوة واحدة لتصل للسَّعد.. تخلص من كل رابط لك بالماضي، حطم شريحة هاتفك، مزق ذكرياتك، تحرر من أوهامك وأولها وهم الله .
- لكن.. لا أستطيع !!
- لِمَ؟
- إنه الله يا دنيا، الله !!
- نحن من صنعناه ويمكننا في أي وقت تحطيمه إذا امتلكنا الإرادة، خرافة هو لا حق، ولولا تقديسنا له لما عاش في عقولنا إلى الآن!
- لا أقدر يا دنيا.. صدقيني لا أقدر !
- هادي !.. أين كان الله في رحلة شقائي وشقائك؟!، إن كان رحيمًا فكيف هُنَّا عليه؟ تركني أخرّ على الأرض من ألم الجوع يمزق أمعائي وهو يملك كل شيء ! وتركك تتخبط في دياجير التيه وهو يعلمَ كل شيء !.. انظر إليَّ الآن.. لماذا تأخذ عينيك بعيدًا عني؟! قل لي أين الله !، خرافة عششت في عقولنا كعنكبوت ينمو على الخراب، وعقولنا خربة لأنها تكونت في هذا المجتمع القذر .
- لكن ..

تابعت ولم تترك له فرصة للكلام بعد أن احتدت ورفعت من صوتها:

- أبوك.. ظلّ الله في الأرض، أرأيت كيف هو؟! منافقٌ دجالٌ أثيم.. لو كان الله موجودًا فلِمَ يختَر مثله ليحدّث الناس عنه؟!

عاد هادي يبكي كطفلٍ صغير، أشفقت دنيا عليه فاحتضنته وربتت عليه ثم قالت:

- كفكف من دمعك وقم لتبدل ملابسك، دعنا نُطوّفُ بالقاهرة.

وقاهرتك حيرتُك، ومُعذّبتك رقّتُها، ما محل هذا الشعور من الإعراب؟! أعذابٌ فوق عذاب فوق عذاب؟!

ذهبت لغرفتها وعادت ترتدي بنطالًا يغلب عليه السواد وقميصًا أبيض، ما أيسر بساطتك وما أوفق تناقضك !، هزّت مشاعره ولما يعترف لنفسه بهزها.

ومع دوران الشيشة في قهوتهم بالليل دارت تساؤلاته.. أهو الحبُّ أم هروبٌ يائس من حيرة الإله؟!

يئِدُ العقل لمنطقك.. أحبٌ في رحمِ الألم؟ أم توارٍ من عظيم سؤال؟..

ابتسمت فحبَل قلبه بحبها، سريعةٌ هي القاهرة، أمثلُها الحب فيها؟!

وتمكن دخان الحشيش من عقله فهتف صامتًا يحكي نزوات أبي ليلى المهلهل، وخال نفسه يطارد العامرية على سفح تلّ، ويرثي سعادًا فوق أنقاضٍ مقفرة..

ودنيا دنت منك فسلبت همّك، وإن همك لتخرّ له الجبال..

اختلس نظرة إلى وجهها كأنما يسرق، أهو السُكرُ أم شعوره بالخجل؟ أفي الحب خجل؟! أوَ كان المهلهل يخجل إذ يناجي الخمرَ عند الغسق؟، وغسقٌ يُشرقُ بثنا وجهك بعد خشخشة أوراق الشجر، ونقيق الضفادع،

والسير في الطرقات ليلًا، وليلٌ أبى أن يجير قلبك من لهب الحيرة أيُجيره من لهب الحب؟! وإن كان الحب مرضًا فقد زكم قلب دنيا بدورها، أليست الحمائم تطير مثنى عند الغسق؟ وما يدريك إن كانت تُحبُّك، أليس الحب لمثلك عبثًا؟ وما الحياة إلا عبّث؟!

لاحظت دنيا شتاته فأرجعت ذلك للحشيش، وتمنت من قلبها لو لا ينام كما الأمس، ولماذا يَحدُث دائمًا ما يفكر به المساطيل؟

ودارت الأيام دوران الشيشة في قهوة الملحدين، وتلاشت الساعات فيها تلاشي دخان الحشيش في مجلس الدراويش، كما الفراشة تقع المستجدات غادية بين الجميع ورائحة، أليست الفراشة بدورها قوَّادة الزهر؟!

وذات مرة وهما عائدان من أحد جولاتهما في القاهرة قال هادي لدنيا:

- أتعلمين؟ لقد فكرتُ في أمر الإله طوال الأيام السابقة..
- وماذا وجدت؟
- وجدت أنه لو كان أحدٌ يستحق العبادة فهو أنتِ.

اندهشت فتابع:

- أحببت أن أنبئك بالأمرين معًا، بت أعلم أن لا إله وأني أحبك.

كاد المفتاح يسقط من يدها وهي تفتح باب الشقة لهول المفاجأة، وما دخلا إلا وقد ذابا معًا في دوامة الشّبق.

*****

وليلٌ كنت تقضيه منكسرًا تقضيه اليوم عاشقًا، وعزة وكرامة وحب وسلام وراحة جمعت لك في أحضانها، أنابٌ أنتِ من أنياب الدنيا أم أني وصلت للفردوس بعد طول مشقة؟

قرنفلية الأثر، دافئة المذاق، أحبها حب عنترة للسيف، حبًا عنيفًا برِقّة، عنيفًا عنف أيامه، رقيقًا رقة بسمتها، وبينهما تناقض كمثل أنفاسها.

ودّع الشقاء والوهم والهم، وعكف على الكتب يبني ثقافة تخالطها زخات الحب، وسأل الزير سالم عن مقارعة النسوة فضنَّ عليه بالجواب، ثم سعل من أثر دخان الشيشة .

زادت قراءته، علم أصل الخلق كما كتب داروين، وأصل الكون كما نظّر هوكينج ، والعلم يأتي بمزيد فقرٍ إلى العلم، وأين الإله في هذه المعادلة إلا وهمًا سيطر عليَّ فترة جهلي؟ ومع انتشار الدخان كان يُراود امرؤ القيس عن خبرته النسائية..

ودنيا ألهبها الحب كما لم يفعل غيره، والشقة صارت أرض معركة يصارعان فيها الشوق، وماذا تفعل البعوضة لولا كيس الهواء في بيضها.

- أسمعتِ عن حبٍ بألم؟

استغربت دنيا مقالته وقالت :

- وهل يجتمع النقيضان؟!
- فيكِ نعم !

دوّت ضحكتها فاستأنف :

- ومن قال إن الحب نقيض الألم؟
- فماذا ؟
- الحب يجعل الحُرّ مملوكًا وقلبه أسيرًا لمحبه .

امتعض وجهها فتابع بعد أن لثم يدها:

- وأنتِ ملكتي فما ألذّ ألمَك !

تبسمت وقالت :

- فهل سمعت عن حبٍ بأمل ؟
- نعم ..
- أين ؟
- فيكِ كل ألوان الحب تترا ظهورها..
- وتقولُ شعرًا !
- قائل الشعر مجنون، وحبك لا يبقى على ذي عقل .

قالت وهي تضم كفه إلى خدها:

- فعلامَ الألم أيها المجنون؟
- على لحظاتٍ أفارقك فيها.
- لكن ما باليد حيلة أكون في العمل!
- لهذا أتألم .
- عندي فكرة، ما رأيك أن أعلمك البرمجة، ثم نعمل معًا.. وعندها أكون مثل ظلك لا أكاد أفارقك.
- بل ظلي يفارقني في الظلام ولا أكاد أجدك إلا فيه .

***

(2)

في خلوته كان فخامته يجلس أمام التلفاز يتابع أحداث الثورة الخضراء، ليس اهتمامًا بشأن تونس الداخلي بقدر ما هو إشفاق على نظيره المتوَّج هناك .

وفخامته رجلٌ له تاريخٌ حافلٌ في نظره، سيما أثناء ارتدائه للبيادة قبل أن يتخلى عنها تقديمًا لمصلحة الوطن وتلبية لنداء الواجب المقدس كما يحلو له أن يردد كلما واتته الفرصة .

ناهز فخامته الثمانين ولما يُرَ في الشاشات أو المحافل متخليًا عن قوامه الصلب ونظرته القوية، ومع طول فترة حكمه صار علمًا لمصر كما الهرم، ومن عجيب أن تحوي كتب التاريخ في عهد سيرة أقرانه مذيّلة بـ"رحمه الله"

جلس فخامته أمام التلفاز يمصمص شفاهه تأثرًا لمشهد نظيره التونسي وهو يقول : فهمتكم، وحدّث نفسه يتمتم :

- أخطأت يا بِن علي وها أنت اليوم تتجرع مرار خطئك، ما أتى العنف يومًا بخير، وشعبك أنَّ لقسوتك!، وياليت لك من

التاريخ ما يشفع لك، فلو أن لك ضربة جوية ترفع قدرك عند شعبك لما آل أمرك لما آل إليه، ما رأيتُ يومًا أعجب من يومك.

والحق يا فخامتك أن من الأيام ما هو أعجب من يومه، أما سمعت عن يومٍ يسوقُ فيه العاهر أمثال الشرف؟، ولعل أعوامك على طولها لم تبد لك عجبًا كما يدخر لك القدر في آخرها، فوفر بعض مصمصة الشفاه علّك تحتاجها فيما بعد .

*****

في بقعة أخرى لا تختلف في جوهرها عن بقعة فخامته، دارت الشيشة تطاحن الصدور بعدد الأنفاس، تتسابق هي والحشيش في شغل فراغ القهوة بالدخان، لا يبدد الدخان إلا قهقهة الجالسين تمازج قرقرة الشيشة مكونة لسمفونية تتميز بعفويتها، وطقطقت كاسات الشراب مع بعضها إذ ارتفع صوت هادي:

- هذا نخب مرور سنة على حبي أنا ودنيا .

هتف الجميع فرحًا وكلمات التهنئة تتلاحم بينهم، وقال دانيال :

- ما كنت أصدق أن عامًا يخلق إنسانًا جديدًا كما خلقك .

فردَّ هادي :

- وأيُّ شيء كنت تصدقه قبل ذلك مما نحن عليه؟

ندت ضحكة تناسب مرح المكان عن دانيال وقالت دنيا:

- منذ عامٍ كنت أحاول إقناعك بأنك حيٌّ وما شعرت بنفسي إلا ونار حبك تلتهمني.

- الحق أني ما شعرت بحياتي إلا مع لذع نار حبك لي، وحبك أنقذني من ضياعي .

شد ما تغيرت أيها المسكين!، ما عدت مسكينًا، قد صرت جبارًا!.. جبارًا بثقتك لا يشوبها ضعف، من ذا يصدق أنك صرت وليَّ أمر شلة كنت ضيفًا عليها لقريب؟، اطلعتَ في كتب الإلحاد نهما حتى صرت بين أقرانك منظّرًا للإلحاد عزّ أن يستغنوا عنه، وأنت وإن كان تنظيرك لم يتعدَّ شبكة عنكبوتية إلا أن انتصاراتك فيها منحتك مركزًا بين أفراد عائلتك ما كنت تتوقعه .

بدا لهادي أن يثير أصدقاءه فقال :

- وهديتي لدنيا نزهة لم تحلم بها تشهدونها غدًا صباحًا .

قرأ الشوق في أعين الجميع فقطع أملهم قائلًا:

- وكل تفاصيلها مفاجأة .

ثم تجاهل كل الأسئلة المستفهمة وأجاب عنها بكلمات خاوية لا تكاد تعني شيئًا، وخال له أن الليل يبتسم فقال: ولا أنت سأخبرك، ثم عرض عليه نفسًا من سيجارته المحشوة فأبى فقال: أنت وشأنك!

أين اختفى هادي بين ملامحك الجديدة؟ أين واريت ماضيك؟ ولك في الخيال حياة؟ مالَكَ تبالغ في إظهار البسمة ورفع صوت الضحك؟! فلتترك الأيام تنبيك كعادتها بالأسرار .

*****

مضى الليل يخطو خطوَ مثقل بالأحمال، خطوًا بطيئًا مرهقًا؛ فعند الانتظار ليس الصبح بقريب، وسرى النور للكون فسرى الشغف إلى قلب دنيا، وأيقظت هادي قائلة:

- استيقظ يا صاحب النزهة .

ظهرت عيناه بين جفنيه بكسلٍ وقال بعد فترة من الصمت:

- كأنك لم تنامي !

فردَّت لفورها:

- وهل ينام عاشق ؟

فقال وهو يمط يده متثائبًا يطرد النعاس كأنما يحدث نفسه:

- ومعذّبتي وُطواطة !

وكزته بدلالٍ وقالت :

- دعك من حكمك الملكوتية، قم لنستعد للنزهة.
- في الواقع لا تحتاج إلى كبير استعداد.

نظرت إليه مستغربة فتابع :

- فقط ارتدي ملابسك المعتادة واتصلي بالجميع وأخبريهم أن لا يحضروا شيئًا .

عجبت لجنونه وقالت مازحة :

- كما تأمر سعادتك!

*****

بعد ثلاث ساعاتٍ قالت منى ضجرة :

- إلى متى سنقف على ناصية شارعنا ننتظر صيدك المزعوم؟

فردَّ هادي ببرودٍ:

- ريثما يحضر.

كان دانيال وأحمد يستندان على الحائط بعد أن ملا الانتظار وهما يسمعان الموسيقى، وكذلك عمر يجلس على الرصيف، بينما بدا على دنيا مزيدٌ من الاستغراب، إلا أن ثقتها في هادي حالت بينها وبين خيبة الأمل.

وبعد قليل انتفض هادي قائلًا للجميع:

- استعدوا قد حضر الصيد .

نظروا إليه متطلعين فوجدوه يركز بصره على شخص قادم من أول الشارع، ومع اقترابه علا التعجب وجوههم وتساءلوا إن كنت تعرفه فأجاب بهدوء:

- لا أعرفه، ولكن تتوفر فيه مواصفات صيدي .

شابٌ على ساحل الثلاثين، يلبس جلبابًا إلى منتصف الساق، تند عن ساقه شعيرات متفرقة، ما أشبهها بالنبات تحت شرفة ذاك الملجأ، ولكن من عاد يتذكره؟!، يطلق شعر لحيته الكث المنفوش، شاربٌ حليقٌ وزبيبة صلاة كركبة العنز، وينتفخ جيب جلبابه بمصحف ومسواك .

استوقفه هادي وحوله أصدقاؤه ينتظرون مفاجأته وقال هادي :

- السلام عليكم يا شيخ .

توقف الشاب ورَدَّ:

- عليكم السلام .
- كنا نبحث عن شيخ لنستفسر منه عن بعض أشياء بخصوص الدين تؤرقنا، فهل تتفضل علينا بذلك يا مولانا؟

تنحنح الشاب مولانا وأغمض عينيه قليلًا ثم شبك أصابع يديه وهز رأسه بدروشة وقال:

- تفضل يا بني.. تفضل .

ومالت دنيا على أحمد تسأله :

- ماله يبدو عابسًا؟

فردَّ بسخرية:

- لا بد أن هناك شيئًا يضايقه !
- أظن أنه يضايقهم جميعًا، فكلهم عابسون !

وقال هادي لمولانا :

- سألنا أحد أصدقائنا على الإنترنت عن دليل وجود الله، فكيف نرد ؟

امتعض وجهُ مولانا وقال لفوره:

- السؤال من الأساس حرام ! وهل يحتاجُ إلى دليل وهو دليلِ كل شيء؟

ثم تابع منشدًا :

- وكيف يصح في الأذهان شيءٌ.. إذا احتاج النهار إلى دليل !
- يا بني! الأثر يدل على المسير، والبعرة تدل على البعير، أفلا تدل المحيطات والأنهار والبحيرات والأشجار والكون كله على العليم الخبير؟
- صديقك هذا كافرٌ فاقطع علاقتك معه، إنه يضلك !
- قلتُ له كما قُلت لي فقال : إن كان كل موجود دليل على موجده فمن أوجد الله ؟

تنحنح مولانا وقال :

- قلت لك كل هذا من الأساس حرام، لا تنجر إلى فخ صديقك فهو كفر، اقطع علاقتك معه من أساسها !

قال هادي :

- لكنه سألني إن كان الله يستطيع أن يخلق إلهًا مثله ! فماذا أقول؟!

استغرب الشاب مولانا وزاد انتباه الشلة ممتزجًا بمتعتهم وقال مولانا :

- بالطبع يستطيع ! إنه على كل شيء قدير !

ابتسم هادي وبرقت عينه وقال :

- إذًا الله ليس واجب الوحدانية ! يمكن أن يخلق إلهًا مثله ذات مرة !

فسارع مولانا قائلًا :

- لا بل واجب الوحدانية، يستحيل وجود إله آخر !
- إذًا فهو يعجز عن خلق مثله لأنه مستحيل عليه..؟

صمت مولانا متأملًا ضحكات مكتومة بين دنيا ومنى، ونظرات شماتةٍ من أحمد ودانيال وعمر، ونظر هادي إليه نظرة القط لفأرٍ حصره في زاوية جدار، ثم قال :

- هل علمت أن الله متناقض؟ وهل علمِت أن صديقي كافرٌ بوهمٍ وأنت كافر بعقلك؟

احمر وجه مولانا وانتفخت أوداجه وثارت ملامحه وصاح بهم :

- يا كفرة يا ولاد الكلب ! كنت أعلم من البداية أنكم كفار والنار مثوى لكم !

ثم انطلق يسعى بعيدًا وهو يلملم جلبابه، وصاحت منى :

- هيًّا قبل أن تحل بنا صاعقة فتصيبك !

وتعالت الضحكات من الجميع كأنهم لم يضحكوا قبلًا، واحتضنت دنيا هادي وقالت لنفسها : يالِنُزهك!

*****

توجه فخامته بضيق إلى إحدى قاعات قصره حيث ينتظره رئيس مخابراته منذ مدة ليست بالقصيرة.. أيُّ سبب يجعله يأتي هكذا دونما سابق موعد؟ يحسنُ به أن يكون سببًا مناسبًا لهذا الفزع الذي سببه لي، فمثل هذه الزيارات لا يأتي وجهه فيها بخير.

وصل للقاعة وقال:

- أهلًا يا عمر، خير؟!
- للأسف لا يبدو في الأفق خير!

صدمه الرد فتأمل وجه رئيس مخابراته عله يتفرس سبب مجيئه، نظرته ثعلبية وملامحه جادة لا هزل فيها، ذقنه مدبب وذكاؤه بيّن ..

- هاتِ ما عندك بسرعة !
- رصدنا دعواتٍ من بعض الشباب على الإنترنت يدعون لمظاهرات في عيد الشرطة القادم ..

صمت قليلًا ثم تابع:

- يظنونها تونس!

أطلق فخامته ضحكة محشرجة ثم قال بنبرة مستهترة:

- أفزعتني يا عمر! ظننت أن هناك أمرًا جللًا.. لا تقلق، هؤلاء عشرات من التافهين على الإنترنت، سيتفرقون عند أول صوت سارينة شرطة ! لا تقلق..

ابتسم عمر باشا ابتسامة طمأنينة لا تخلو من شك، وقال له فخامته:

- دعك من هذا وهلم نلعب الشطرنج، قد قطعت عليَّ راحتي!

*****

بالليل في أحضان قهوتهم تبادلوا كلمات المدح والثناء، معركة قصيرة لكنها ساحقة.. أحسنت يا هادي.. هل رأيت وجهه وهو يهرب مثل الدجَاجة؟ واهنٌ مثل إلِهه..!

ودارت الشيشة بينهم فقال هادي:

- دوران هذه الشيشة بيقينٍ أشرف من دورانهم بين مساجدهم ومعابدهم بلا عقل !

ضجَّ المجلس بالمرح، وقال أحمد :

- هل سمع أحد عن مظاهرات عيد الشرطة القادم ؟

استغرب الجميع فتابع :

- بعض الشباب على الفيس بوك يدعو لمظاهرات يوم عيد الشرطة القادم .

قال هادي:

- وما مطالبهم ؟
- الحرية.. التغيير.. العدالة .

سرت موجة من الحماس فطربت لها أفئدتهم، وتوالت التعليقات :

- لا بد أن نشارك .
- فرصة لتغيير هذا المجتمع القذر .
- ستكون نزهة رائعة !
- سنشارك، لا خيار.

نظر الجميع إلى هادي ينتظر رأيه، فكر قليلًا ثم نطق:

- وماذا لو مات أحدنا؟

قال الجميع :

- فليمت من أجل الحرية !

وتساءل بينه وبين نفسه إن كانت الحرية تستحق الموت! إلا أنه رضخ للحماس المشتعل، ولم تمتلئ القهوة بالدخان إلا وقد اتفقوا على المشاركة .

وماذا تفيدك الحرية إذا مت أيها الخلية المتطورة؟ لا تؤمن إلا بالمادة، فأي نفع ماديٍّ يلحقك بعد موتك؟ وما معنى الشرف والحرية والتغيير إذا تحققت وأنت تحت طبقات التراب؟

أتراك تؤمن دون أن تدري بمعانٍ فوق مادتك؟ دع الأيام تحكي عنك فهي خير قاصّ.

تجاهل أفكاره وقال:

- لا بد من الاستعداد..

وتساءلت دنيا إن كان عدد المشاركين كبيرًا، فردَّ دانيال:

- ومن يهتم؟ فلنشارك وليكن ما يكون !

*****

شق فجر الخامس والعشرين من يناير بهيم الليل، وتتابعت أفواج المتظاهرين تترا كما لم تشهد أرضٌ من قبل، جيشٌ عرمرم مسالم أتى اليوم لينفس عن بركان خمد ربع قرنٍ أو يزيد. وفخامته يسأل صناديده فيجيبون: الوضع تحت السيطرة !

من ذا يسيطر على شعب يبحث عن حريته وقد رسف في أغلالك ثلاثين عامًا؟

يا فخامتك.. هنا شعبٌ طحنته أيامك، هنا شباب بلا شبابٍ ضاع شبابهم في غيابات سجنك، هنا أمٌ هيأت ابنها لعرسه فزفَّته لقبره، هنا شيخٌ لم تجل شيبته، هنا خالد سعيد وسيد بلال تحوم روحهما، هنا ثأر! والدم لا ينام .

يا فخامتك.. هنا أنا! بنهري وأزهري وهرمي، وإن كنت أنا فلا أحد! يا فخامتك هنا شعب استنشق نسيم الحرية الخضراء في تونس، ومن استنشقها أدمنها.. !

تعالت الهتافات تصدح بأنفاس الكرامة، وتسطر قصص شعب لطالما ظلَّ هادئًا وديعًا، أليست النوق تصبر فإذا فاض كيلها انتقمت؟

فوجئ فخامته لهول المشهد فأمر بمجابهتهم بالقوة، لا قوة يا فخامتك فوق قوة العدالة!

انقلبت المظاهِرات ثورة سرت في عروق الشعب فكادت حماستها تطال الراقدين تحتِ التراب، تلاحم الشعب ضد طاغية بغى والبغي سهامٌ تنتصر! وكان من عجيبٍ أن ترى مسيحيًّا يوضئ مسلمًا بعد أيامٍ من

تفجير كنيسة القديسين ومحاولة إشعال فتيل الفتنة، هنا ركّعٌ سجود وحولهم يحرسهم غير أهل ملتهم !

وتعالت الأغاني تحكي أهازيج:

غني الحرية دي أجمل غنوة في الوجود

شمس الحرية اتولدت ولا يمكن تموت

فارس عقليته مقاومة وحياته الصمود

غنى وعدى المستحيل.. كل أماله الحريا

وسط الضلما كان دليل.. صحا الشمس المصريا

ارتج الميدان يعصف برياح الثورة، وخرج أحد أعوان فخامته يعرض على المتظاهرين (بمبوني)، ولا عجب في وقاحة ردهم بعد ذلك !

ذاب قلب هادي في أجواء الثورة فهتف كما لم يهتف من قبل، وقال لنفسه: هنا العزة والكرامة والسلام والحب وأنا !، وقالت دنيا : ما أحلى أيامي معك، فقالت : حبك يجعل للحرية طعمًا آخر.

تكررت سهرات الشقة في خيمتهم بميدان التحرير، لم يعلموا أحدًا بمعتقدهم، فضلوا التركيز في الثورة عن التيه في مجادلة الناس، ولعلع صوت دنيا بالليل تتغنى بكلمات الثورة لتمازج ألحان العود مع تصفيق الشلة!

وبالعجب الميدان، فخيامٌ أهلها ركّع سجود، وخيام أهلها يطلبون بركة يسوع، وخيمتنا تصدح بالغناء ! والكل يطالب بالحرية !!

وتفتق ذهن فخامته بعد أيامٍ عن إطلاق الجمال على الثوار في معركة الجمل..

اخترق البلطجية صفوف الثوار فوق أسنمة البُخت، وسال الدم ليرسم تاريخًا من الكفاح عاينه شعب مسكين، ويصرخ بأحلام بعثرها فخامته!

زادت أفواج القادمين، انتفض الشعب كله يكسر الأصفاد عن عنقه، وأغلالك يا فخامتك قابلةٌ للتحطيم إن تواجدت الإرادة!

ضجَّ الميدان بالشكوى هتفًا فقعقعت أبواب السماء، وكم من شعبٍ سعى للحرية ثم نالها، أليست الحرية ثمنها الدم؟

زادت حماسة الشباب فتسابقوا لانتزاع حريتهم، ترى شابًا يقف أمام المدرعة وحده! أيهما يخشى الآخر؟ هو أم فخامته؟

توالت البطولات فعزّ حصرها، وتعالت الأصوات فجلَّ كبتها، وانتقلت الثورة إلى المحافظات كلها بعدما كانت حبيسة ميدان التحرير، وعاد التاريخ يرقب مصر مطأطئًا رأسه لعظمتها، وعاد النيل يبتسم كما لم يفعل منذ زمن .

*****

تنفست أنسجة الخيمة دخان الحشيش فقالت لهادي وهو يخاطبها :

- سيرحل..
- من أنبأكِ هذا ؟
- سيرحل وفقط !

قالت دنيا :

- دعك من مخاطبة الخيمة وقل لي، ماذا سنفعل غدًا؟
- لا شيء، أرواحنا أو الحرية !

تأملت دنيا حماسه ثم قالت :

- تساءلتُ عن فائدة الحرية ونحن تحت التراب للأبد .

لماذا تحدثك تلك الفتاة دائمًا بما في روعك؟!

أجاب بعد صمتٍ له مغزى:

- أتعلمين.. لا أدري ! حقًا لا أدري!

صمت قليلًا ثم قال متابعًا:

- فكرت فيما هو أعمق، لماذا الحرية قيمة مستحسنة؟ متى عرف الكون ذلك المعنى؟ أهو أزليٌّ ليس له بداية؟ فأين كان قبل نشأة الكون؟، أم أنها قيمة حادثة طرأت على الكون؟ فكيف كانت بدايتها ؟

قاطعهما أحمد:

- غريبٌ أن نرى هادي لا يعلم !

ثم مازحًا:

- يا صاحب العقل الذري !

ردَّ هادي لفوره:

- نعم.. صاحب العقل الذري يغيبه كل يوم بالحشيش!! يالاحترامي لعقلي !

ضحك دانيال وقال :

- إن كان الفرق بيننا وبين الحيوان هو العقل الذي ميزتنا به الطبيعة، فأين بشريتنا ونحن سكرى؟
- وأين بشريتك وأنت تطاوع لذَّاتك بلا ضابط كالبهائم؟ وإن كان من ضابطٍ فلِمَ؟ ولماذا تصر على أنك غير البهائم؟ ما الفرق بينكما إلا خطوة على سلّم التطور؟

قدمت منى ومعها صديقة لها تعرفت عليها في الميدان، قدمتها لهم فاستقبلوها بود، ليلى سعيد.. توسطت العقد الثالث من عمرها، هادئة الملامح جذابة الهيئة، تبادلوا كلمات المجاملة، وسريعًا ذهبت كما قدمت.

وقال هادي يخاطب الجميع:

- أحيانًا أُسائلُ نفسي.. لماذا حرصتم على دعوتي للإلحاد؟ أعني: ما المنَفعة المادية التي تعود عليكم إذا ألحدت؟!

صمتوا جميعًا فترة كفت لتحتل قرقرة الشيشة جو المكان ثم قالت دنيا:

- لأننا نحبك!

سارع هادي بالرد كأنها ليست أول مرة يفكر في هذا الكلام:

- وما موقع الحب من المادة؟ إن كنا نعتقد بمادية كل شيء، فما الحب؟

قال عمر :

- تفاعل كيماوي في العقل يجذب الذكر للأنثى!
- أيُّ أنثى؟! كلامك صحيح إن كان كل ذكرٍ ينجذب إلى كل أنثى، لكن لماذا انجذبت أنا إلى دنيا دون غيرها؟ كل بنات العالم أمامي، فكيف ميزت التفاعلات الكيميائية بينها وبين غيرها؟ طالما فكرت في ذلك ولم أجد في المادة جوابًا !

قالت دنيا :

- لا تعاود التفكير فيه، فالحب إن علم سببه قلَّت قيمته !
- تبسم ببطءٍ ثم ضمها إليه وهم جلوس، وأشار أحمد إلى منى كأنما يريدها لأمر فخرجا معًا من الخيمة .

*****

اجتماعٌ طارئ لثلاث رؤوس، فخماته ومدير المخابرات، وصاحب البداية سعادته، بدا الجو متوترًا والنفوس مشحونة، وحل الصمت لفترة قطعها صراخ فخامته فيهم:

- وتقولون الوضع تحت السيطرة ؟!

تنحنح عمر متحضرًا للكلام وقال:

- فخامتك لقد ..
- أعلم أنك أخبرتني.. أعلم! هل من جديد لتقوله؟

ابتسم سعادة صاحب البيادة وقال:

- في الحقيقة هناك جديد، امتلأت كل الشوارع بالبشر، ما من مفرٍ إلا امتصاص غضبهم..

نظر إليه فخامته فتابع عمر:

- وقد رأينا بناءً على المعلومات والبيانات عندنا أنه ما من حلٍّ إلا أن تسلم فخامتك السلطة لسعادة صاحب البيادة، وحين يهدأ الشعب تعود إلى منصبك معززا مكرمًا.

عاود فخامته النظر إليهم يتفرس الخبث في وجوههم ثم صرخ فجأة:

- لا يمكن! لا يمكن التنازل عن السُلطة! ليس لأحدٍ أن يجلس على العرشِ إلّاي، وما كان لشرذمة من الشباب أن يقتلعوني، ما خلقتُ إلا للعرش وما خلق إلا لي.. ابحثوا عن حلٍّ آخر.. انتهى الاجتماع .

ثم قام ماضيًا ولم يعقّب، كاد سعادته صاحب البيادة يقوم؛ فأمسك عمر بيده وقال: اجلس يا سعادتك، لم ينتهِ الاجتماع..

جلس سعادته مستغربًا فقال عمر:

- تعلم يا سعادتك ما نحن فيه وتقدِّر الموقف..
- بالطبع !
- أرى أن فخامته قد أخذه جنون العظمة، والبلادُ على شفا مصيبة !
- نعم.. وأي مصيبة أكبر من هذه !

تابع عمر:

- لا حلّ إلا أن نضرب عصفورين بحجر!

نظر إليه صاحب البيادة وقال:

- كيف؟
- نمتص غضب الشعب وننهي الأزمة، ونتخلص من خطر توريث الحكم لابنه المدني الذي لا يعرف عن العسكرية إلا حكاياتٍ تحكيها له أمه..!

تغيَّر وجه سعادته إلا أنه تابع الاستماع مبتسمًا، وتابع عمر الشرح..

*****

تجمهر الشعب في الميدان حول الدبابات تملؤه، واستنجدوا بالجيش هاتفين له يذكّرونه بحرب أكتوبر، ما أشبه استنجادهم بالجنود باستنجادهم بجماد! كلاهما لا يسمن ولا يغني من جوع، هذا أمرٌ بيت بليل.. واحتشد الناس مترقبين خطاب فخامته بعد عدة خطاباتٍ فاشلة، خشعت الأصوات فلو أن إبرة سقطت في أول الميدان لسمع طنينها في آخره، مضت دقائق من الصمت فوجئ الجميع بعدها يلقي الخطاب عمر سليمان مدير المخابرات وليس فخامته! وبدأ يلقي الخطاب على الشعب المترقب حتى بلغ:

- تخليه عن منصب رئيس الجمهورية، وتسليم السلطة للمجلس العسكري لحين انتخاب رئيس جديد للبلاد"

تفجرت الزغاريد تمازج التكبير والهتاف، وشقت صواريخ الفرح سماء مصر في كل ربوعها، وثمل الناس فرحًا فلم يستوعبوا ما حدث إلا بعد فترة، وضجت الميادين بالبكاء، بكاء الفرح، وما أطهر تلك الدموع وما أرخصها بعد ذلك !

أعلن سيادته أن فخامته سلَّم السلطة لسعادته فهلل الناس وكبّروا !!

ومرَّ شحاذٌ بالميدان فتأمل الموقف ثم قال: " اللي كلف ما ماتش"، أنّى يسمعك أحد !

بلغ حماس الشعب ذروته فارتعدت له النجوم، وهاجت مشاعره فتغنى: بلادي بلادي ..

ثم بعد قليل لملم أشياءه وترك الميدان، وشرب سعادته مع سيادته نخب النجاح، وفوجئ فخامته بالبدلة البيضاء!

*****

بدت القهوة كما هي.. لم تتغير !، ألم تشعري بما حدث؟ تغيَّر النظام !، ربما كانت القهوة أوعى من أصحابها !

تساءلت دنيا عن أحمد. فقالت منى وهي تلف السجائر:

- في طريقه إلى هنا..

ما كادت تكمل كلمتها إلا وسمعوا خطو شخصٍ يقترب.. دخل أحمد فقال هادي يداعبه:

- أهلًا بالمناضل..
- لم يضحك ولا حتى مجاملة، بدا كئيبًا ذابلًا !

سأله هادي :

- ما لَك؟
- لا شيء .
- قلتُ ما لَك؟
- أمرٌ تافه!

قالت دنيا:

- احكِ وخلصنا !

تنهَّد ثم قال:

- تلك اللعينة صديقة منى التي زارتنا في الميدان..
- أتقصد ليلى سعيد؟
- نعم.. أخبرت منى أني أريد مصادقتها فكلمتها ووافقت..

قهقه دانيال لكن سرعان ما صمت بعدما نظر الجميع إليه، وتابع أحمد:

- وظللنا نخرج سويًا، ومضت علاقتنا لا يعكر صفوها شيء.. حتى علمت بأني ملحد..

ترقب الجميع كلماته القادمة إلا أنه صمت، فصاحت دنيا:

- ثم ماذا؟!
- بالطبع قطعت علاقتنا !

ضحك هادي وقال :

- تستحق ذلك لأنك لم تخبرنا عن تلك العلاقة !

تابع أحمد كأنه لم يسمع شيئًا :

- ولم تكتف بذلك، بل وجهت إليّ وابلًا من الأسهم مزقني ! سألتني: "ماذا ستفعل إذا تزوجنا وعرض عليك أحدهم ألف جنيه مقابل أن أنام معه ليلة؟"
"بالطبع سأرفض!"
"لماذا ترفض؟ أنت ستستفيد المال، وأنا أستفيد المتعة.. فأي مصلحة مادية في الرفض؟"
أعييتُ جوابًا فتابعت:
"حينما تعرف ماذا تعتقد.. تعالَ وأنشئ علاقاتٍ مع الناس."

*****

مرت أشهرٌ على يوم خُلع فخامته من السلطة وتسلمها صاحب البيادة، أشهر كانت كفيلة بأن يدرك الشعب أن كليهما وجها عملة، أحس الشباب بالخديعة فانتفضوا، ودعوا إلى مظاهرةٍ جديدةٍ هاتفين برحيل الموجود من سدة الحكم كما رحل من قبله، وكتبوا على الحائط "اللي كلف ما ماتش" و "حكم الموجود باطل"

وما هي إلا دقائق حتى فوجئوا بهجومٍ كاسحٍ بلا مقدمات من أفراد الأمن مع وابلٍ من الرصاص الحي والخرطوش يستهدف وجوههم قاصدًا تصفيتهم لا تفريقهم، تفرق المتظاهرون تحت وطأة المعركة غير المتكافئة وركض هادي وأصدقاؤه باتجاه محمد محمود.

تصاعدت الأدخنة المسيلة للدموع وتعالى صوت الطلقات المتتابعة، فصار المشهد أقرب لمعركة أثناء حربٍ منه لمظاهرة سلمية..

حاول أفراد الشلة التخلص من حصار الجنود لهم، ظهر مجنّدٌ يخترق حواجز الدخان داهسًا ببيادته على أحد المصابين.. اقترب شيئًا فشيئًا حتى صار يبتعد عنهم مترين، وبسرعةٍ رفع خرطوشًا بيده وصوبه إلى وجه دنيا ثم ضغط على الزناد !

صرخ هادي وفرّ الجندي وتفجَّر الدم من رأس دنيا ينابيع حتى أغرق وجهها، هرول هادي باتجاهها فوجدها تقف بضراوةٍ هاتفةً "حكم الموجود باااااطل"، ثم خارت كخوار ثورٍ يُذبَح! أرغت وأزبدت وبدأت تفقد وعيها وشعورها بمن حولها، عجز هادي ومن معه أن يجدوا لها منفذًا ليخرجوا من ذلك المكان فخرَّ هادي على ركبتيه محتضنًا إياها من خصرها صارخًا بالبكاء، والدم ينزف من وجهها حتى بلغ رأس هادي..

ثوانٍ معدودةٌ انقضت قبل أن تخر على الأرض جثة لا حراكَ فيها، ثم خرَّ هادي بجوارها مغشيًا عليه .

*****

بدا صوت صفير جهاز القلب مزعجًا لرتابته، مرَّ أسبوع على هادي في غيبوبته، ليس لإصابةٍ في جسده وإنما لمصاب قلبه، ترقَّب الجميع عينيه وهما تتململان تحت جفنيه ويصرخ من حينٍ لآخر "دنياا!"، وترقرقت الدموع في أعين الحاضرين وهم يعاينون تلك المأساةَ التي تشيب لها الرؤس، سرت حركة غريبة بين الأطباء فجأةً وتوالت الممرضاتُ على الغرفة في مدة قصيرة، سأل دانيال الطبيب:

- خيرٌ؟

ردَّ الطبيب وقد بدا عليه الاستعجال:

- المريض على وشك الإفاقة..

اعتلى الفرح وجوه الجميع، ومسحت منى دموعها بيدها، إلا أنهم تلفتوا حولهم فلما تذكروا غياب دنيا عنهم توالى نزيف الدمع..

انتفض جسد هادي مراتٍ عديدة، وبدأ يفيق من سكرته رويدًا رويدًا، فتح عينيه فوجد أشباحًا تحوم حوله في فراغ الغرفة، حاول بعد دقائق أن يعتدل في جلسته فخذله جسده، والكل يحبس أنفاسه ويرقبه بصمت واستطلاع ..

بعد نصف ساعة من محاولة الاستفاقة وتوالي الأطباء بالمحاليل والعقاقير استكمل هادي وعيه واستتم له تركيزه، نظر إليه جميع الأصدقاء ينتظرون كلامه، كلهم يهاب أن ينطق بحرف، ومن ذا تسعفه الكلمات في مثلَ ذلك الوقت؟

مرت الدقائق ولما ينطق هادي بكلمة، وقلَّب بصره بينهم كأنه يُنكرهم فلما زاد الريبُ قال دانيال:

- أهلًا يا هادي..

انتظر جوابه فلم يرد، نظروا جميعًا إلى الطبيب باستغراب فاقترب الطبيب يحاول استنطاقه فحار حيلةً ولما يرد هادي، استدعى الطبيب طبيبًا آخر، وظلّا يتشاوران ودانيال يسمعهم بينما حاول أحمد وعمر ومنى أن يتكلموا مع هادي وهو ما زال صامتًا .

ما أشبهك بك! قد عدت أيها الجبار مسكينًا كما كنت أولَ مرة! ودنيا فارقتك فصارَ لا دنيا لك ! وكل شيئين بعدها عندك سيّانَ، ألست ذلك الصبي الصامت لمّا قالوا ابن زنا؟ فأين أيمنُ منك الآن ليعيد استنطاقك؟ أو يقدر بشرٌ على وقف نزيفك؟

قال الطبيب لن يتكلم حتى ينسى، وقالوا لن ينسى، فقال كلٌ ينسى، قالوا وهادي ليس كمثله من أحد!

*****

- إلامَ كنت تظن نفسك صامتًا؟ وحتامَ تبكي حتى تكاد تهلك نفسك؟

سأله دانيال بعد أسبوعين من إفاقته فنظر إليه ولم يُجب، وتابع دانيال:

- لماذا لا تجيب؟ هل تعود إلى صمتك من جديد؟ هادي.. ألا تعلمُ أن الموت حق؟

هزّه دانيال بيديه هزة عنيفةً فرفع بصره إلى السماء وقال :

- إن كان الموت حقٌ فإني مطالبٌ بحقي !
- كف عن المزاح يا هادي!
- هل أبدو لك كشخصٍ يمزح؟

- ماذا ستفعل إذًا؟
- سألحقُ بدنيا.. الانتحار !
- أووه.. كنت أعلم أنك ستصل للجنون، وهل تظن أنك ستلحقُ بها بعد الموت؟ هي الآن ترابٌ وأنت ستصير ترابًا بعد موتك للأبد!
- بعد دنيا كلُّ ما فوق التراب ترابُ .
- كف عن هذه الترهات ! يجب أن تتوقف ..
- سأتوقف للأبد .
- أرجوك كف عن هذا !

قام هادي ينظر للأعلى من نافذة غرفته في الشقة ويداه متشابكتان خلف ظهره ثم قال:

- عندي لك سؤالٌ يا دانيال..
- ماذا؟
- كيف لخليةٍ متطورةٍ تعيش في كونٍ لا شيءَ فيه إلا المادة أن تفكر يومًا في الانتحار؟ كيف تفكر تلك الخلية المتطورة في أن تفقد كل منفعة مادية للأبد؟ ألا يدل ذلك على أن هناك قيمةً فوق المادة افتقدتها فلم تعد للمادة قيمة؟
- لا أفهم شيئًا مما تقول !
- ولا أنا ..
- ثم ماذا؟
- لا شيء، اليوم آخر يومٍ لي على ظهر الدنيا، وغدًا أحلّ ضيفًا على باطنها.

- ونحن؟ تتركنا؟

ضحك هادي بسخرية ثم قال:

- الموتُ حقٌّ يا دانيال، كلُّ ما فوق التراب ترابُ!

نظر دانيال للأرض يائسًا، وقام هادي يلبس ملابس أنيقة ثم قال:

- دعني أرى الدنيا للمرة الأخيرة ..

*****

خطا بين الطرقات خطوَ مثقلٍ بالذكرى، لا يوجع البعد لكن توجع الذكرى، وتمتم: أنهكتني مطاردة ظلك سرابًا تجلى في الأفق يتهادى بدلالٍ، وعقصة شعرك تتمايل كأسنمة نوقٍ بين كثبان الشوق، أما كنتُ أنظر في أحضان مقلتيك فأراني؟ فأين تراني منك الآن؟

نزفت الدنيا قطرات من المطر فقال أحست مني الهجر فخانتها دموعها وقال لو كان الأمر إليَّ لما كتب بيننا فراقٌ وجاء دانيال فانقطع المطر فقال ضنّت بدمعها أمام غريب !

- وصاح دانيال:
- ثم ماذا؟
- ثم الفناء في بحر الأبدية المطلقة حيث لا عودة من العدم ولا وجود للألم..
- هل يبلغ الجنون بكائنٍ أن يكره الحياة؟!
- إنما أبحث عن حياة.. لكن بلا نبضٍ ولا وجع.
- وأنت في طريقك للبحث عن حياةٍ لا تنسَ أن تعيش !

- هل سمعتَ عن رجلٍ أحبَّ الحب ولم يحبه الحب ؟
- دع عنك هذا!
- أتدري كيف؟
- كفاك هذيانًا..
- إذا أخبرك ..
- أقسمت عليك بكل يومٍ مضى بيننا.. توقّف

توارى من وقع نبضها على قلبه كما النّخر، بينما تعمّدت هي العزف على نحره بسيفٍ غير مشحوذ..

- كف عن الهراء !
- أتدري من هي؟
- قد بلغت الجنون !!

توقف هادي فجأة عن الحديث وتسمّر وجهه، وانتابت شفتاه رعشة خفيفة تزامنت مع هزة جفنه الأيسر..

فقال دانيال:

- والآن ماذا؟
- إنه هو !!
- من ؟
- اللعِين القاسي !!

نظر دانيال أمامه فوجد إعلانًا لندوة في ساقية الصاوي مكتوبًا فيه "الإسلام والمرأة.. مناقشة هادئة" د.شريف محسن ..

ثم أعاد النظر إلى هادي فوجده يتأمل اللوحة والدمع يتفلت من بين جفنيه !

أيا أيها الجبار قد كثر بكاؤك، وعلا منك النحيب حتى صار لك عادة، وإن منا إلا وله في القلب جرح لا يلتئم كلما ثقل به الألم انطبع على وجنتيه دمعًا ينهمر!

قال دانيال:

- أوكلما راودتك الذكرى عن سعادتك ملكتها نفسك!؟
- بل لديَّ مهمة لا أبرح حتى أقضها!
- إلامَ قادتك آلامك من جديد؟
- ذلك الشيخ المنافق، أفضحه ثم أنتحر..
- دع عنك الانتحار وافعل ما بدا لك.
- أفضحُه ثم ليكن ما يكون!

عاد مسرعًا إلى قهوتهم ومعه دانيال، ما أبأسَ القهوة بلا دنيا، ولكن الحقد ما عاد يترك لعقله مجالًا للتفكير.

اجتماعٌ طارئٌ بين أفراد الشلة.. سريعًا جاء عمر ومنى وأحمد، كعادته أمسك هادي زمام الحديث فقال عمر مداعبًا: أهي عودة الفارس ؟

لم يلتفت لدعابته ثم قال بجدية:

- هناك ندوة لأبي بعد يومين.. وحان وقت الانتقام !

قالت منى:

- كيف ذلك؟

- سنذهب كلنا، وننتظر حتى نهاية الندوة ثم نطلق الأسئلة تباعًا ونعجزه عن إثبات وجود ربّه كما أعجزنا غيره من قبل، فيفتضح الشيخ المنافق أمام قطيعه!

توالت كلمات الإعجاب من الجميع إقرارًا بإحكام خطته على بساطتها وطقطقت كاسات الشرابِ مبارِكةً اتفاقهم وعادت القهوة تزفر بدخانِ حشيشهم بعد طول غياب .

*****

في اليوم الموعود بدا تغريد البلابل مختلفًا عن كل صباح، أتراهم ينعون سُمعة الشيخِ قبل أن تبعثر في الندوة أم يغردون فرحًا ببقاء هادي ليومٍ آخر، ومنذ متى وكان تغريدهم يشبه ما قبله؟! كذلك ساءَلَ نفسه ثم بدأ بتنفيذ خطته..

تدفقوا فرادى بين أفواج الحاضرين وفرّقوا أماكن جلوسهم كي لا يُكتشَف أمرهم، دخل الشيخُ فانقبضت قلوبهم ولولا أن ثبتهم ثقة هادي لانقلعت أفئدتهم من أجوافهم، أيها الشيخُ من أين لك تلك الهيبة وذاك الوقار؟ أتراهما نُسجا على أنقاضِ مساكينَ كمثل هادي؟ وكيف لك أن تبتسم ولأجلك حرم هو من البسمة أعوامًا، واليوم يتخبّط تائهًا بين أزقة الدنيا بعد أن فقد دنياه، قد أتى أيها الشيخ مطالبًا بحقه والحق أحق أن يُقضى!

اعتلا الشيخ المنصّة يتكلم برزانة وهدوء، وكان هادي ومن معه لا يسمعون من كلامه إلا فتاتًا شغلهم عنه تفكيرهم فيما بعد كلامه، مضت الندوة كشهابٍ في ظلام الليل.. ما أظلم ليلَك!، أومأ الشيخُ بيده آذنًا للحاضرين في طرح الأسئلة، وتسارعت دقات هادي فوضع حدًّا لتوتره

برفع يده، إلا أن الشيخ اختار غيره.. تسارعت دقات قلوبهم جميعًا على اختلاف أماكنهم، ورفع هادي يده بشكل أوضَح ولما انتهى الشيخ من إجابة السؤال الذي قبله أشار إليه أن تفضّل !

انتظر هادي مليًّا حتى يُمرر إليه مكبر الصوت، لحظاتٍ تسنَّى له فيها أن يتأمل وجه أبيه للمرة الأولى.. ما أغرب بسمتك إذ تنظر إليه ! أهي بسمة قتيلٍ ينزف للمرة الأخيرة في معركة الحياة؟

تأمله فوجد لحيته ممشّطة، وجلبابه نظيفٌ مهندم، ملامحه هادئة باسمة، وطمأنينتة غريبة، وأرجع نور وجهه إلى شدة الإضاءة فوق رأسه.. لم ينتبه إلا مع هز شخصٍ له وهو يناوله مكبِّر الصوت فاتسعت ابتسامته وجهّز سؤاله الذي يعُدّهُ ضربةً قاضية تقصمُ ظهر كل مؤمنٍ بوجودِ تلكَ الخرافة التي تُدعى "الله"

أمسك المايك بثقة ثم قال:

- أريد أن أسألك أيها الشيخ الفاضلُ سؤالًا بسيطًا، وأرجو أن يتسع صدرك للجواب.. هل يستطيع الله أن يخلق إلهًا مثله أم لا يستطيع؟ فإن كان لا يستطيع فكيف أعبد إلهًا عاجزًا؟ وإن كان يستطيع فكيف تقول إنه لا إله إلا الله بينما هو يمكنه أن يخلق إلهًا آخر في أي وقتٍ شاء؟

أنهى سؤاله ثم أطلق ابتسامةً لم يخف معناها على الحضور، وانتظر ارتباك الشيخ..

تأمله الشيخ قليلًا ثم ابتسم وقال:

- أيها الشاب، إني أحترم فيك أدبك عند طرح السؤال وجرأتك على طرحه.. فديننا لا يمنعُ من طرح أي سؤالٍ مهما كان، بل

يجب أن تسأل لتعلَم، والدين الحق يجب أن يكون عنده جواب مقنع لكل سؤال، والرد على سؤالك بسيط.. أنت تسأل سؤالا خاطئًا لا يستقيم منطقيًا، فمعنى أن يكون هناك إله أي أنه غير مخلوق.. فكيف تقول : "هل يستطيع الله أن يخلق شيئًا غير مخلوق"؟ بمجرد أن يخلقه سيكون مخلوقًا !، إنك تجمع بين النقيضين في سؤالك! وهذا خطأ.. فحينما يستقيم السؤال ويصير سؤالًا صحيحًا عندها نبدأ في الجواب عليه .

تغيَّر وجه هادي لحظةً وظهر عليه أثر المفاجأة!، وما إن جمع شتاته حتى قال متهربًا:

- فهل يستطيع الله أن يخلق حجرًا كبيرًا بحيثُ لا يقدر على حمله؟
- سؤالك هذا خاطئٌ أيضًا، أنت تسأل : "هل يستطيع الله أن لا يستطيع".. فكيف ذلك؟ يجب أن تتأكد أن سؤالَك يستقيم مع العقل ليستطيع المسؤول الإجابة عليه! سؤالك أيضًا يجمع بين النقيضين

صمت هادي كثيرًا كأنما تلقى صدمةً ما كان يتأهبُ لها، تعالت الهمسات بين الحضور وتدارك دانيال الموقف فسأل من الجانب الآخر للقاعة:

- فما الدليل على أن للكون خالقًا؟

فردَّ الشيخ مبتسمًا :

- سأجيبك ولكن قل لي.. هل الكون له بداية أم أنه أزليّ؟
- بالطبع له بداية، النظريات العلمية تثبت بدايته ..
- وماذا قبل الكون؟

- العدَم ..
- إذا دعني أسألك سؤالًا آخر.. صفر زائد صفر، أو صفر ناقص صفر أو صفر قسمة صفر أو صفر ضرب صفر أو صفر أس صفر أو صفر جزر صفر.. ما نتيجة كل هؤلاء؟
- إما أنها صفر أو أنها غير معروفة..
- أحسنت.. فكيف لذلك العدم وهو صفرٌ أن يتحول إلى ذلك الكون كله إذا كان كل شيءٍ حينها عدمٌ؟، أنتم تقولون إن الكون جاء بعد الانفجار العظيم.. وأنا أقول كيف جاء الجسمان اللذان اصطدما؟ أو كيف جاء رأس الدبوس الذي انفجر، على اختلاف النظريات؟ من أين أتت الطاقة التي حركت كل هذا؟ أليس العلم يقول لنا بأن الطاقة لا تنفد ولا تستحدثُ من العدم؟ فكيفَ جاءت كل هذه الطاقة من العدم؟

لا بد أن يكون هناك شيء أزلي كان موجودًا قبل كل ذلك هو من أوجد كل ما ترى الآن..

- ولماذا لا يكون ذلك الشيء الأزلي هو المادة؟ لماذا تعتبرونه إلهكم؟
- إن الخروج عن الزمن شيءٌ غير مادي! فيكف تقول إن هناك شيئًا ليس له بداية زمنية ثم تدعي أنه المادة بعينها؟، وكيفَ جاء كل هذا النظام بدقته وكل هذا الكون بعظمته بمادةٍ عمياء صماء بكماء غير عاقلة ولا واعية؟ كيف تدعي أن كل هذه الكائنات وكل هذه الموجودات جاءت بالعشوائية والصدفة بلا حكيم عليم خبير يرى ويسمع ويقدر؟ أتدري بماذا تذكرني؟

إن الملحد الذي يدعي أن الكون بلا خالقٍ يشبه شخصًا يركب دراجةً في غابة؛ فلو قال له أحدٌ إن هذه الدراجة التي يركبها لا صانع لها لاتهمه بالجنون، بينما يدعي هو أن تلك الغابة كلها بلا صانع ولا يرى في ذلك جنونًا، ولو أنه علِمَ قليلًا لاكتشف أن أقل عملية حيوية تجري داخل تلك الشجرة هي أعقد ملايين المرات من دراجته ! فقليلٌ من العلمُ والتفكير يوصلُ للإلحاد، وكثيرٌ من العلم والتفكير يوصلُ للإيمان.

تجمد دانيال مكانه بعد أن صدمه الشيخ بتلك الردود المباغته، ولم يشعر إلا بأحمد يتكلم من آخر القاعة قائلًا:

- لكننا لا نقول بأن كل شيء أتى بهذه البساطة، لقد حدثت طفراتٌ عشوائية تقدَّر بالبلايين من المحاولات كلها فشلت حتى جاءت الحياة صدفة وتوافقت كل المقادير والنسب مع بعضها فأوجدت كل ما ترى .

تأمل الشيخ وجوه الذين وجَّهوا إليه الأسئلة بسرعة ففطن للعبتهم، ثم تابع بثبات :

- أولًا أنت لا تملك دليلًا على ذلك، وعلى المدعي البينة، ثانيًا أذكر أنني قرأت بحثًا لعالم اسمه "دوجلاس دي آكس" إن لم أكن مخطئًا في الاسم قام بعمل تجربة على احتمال إنشاء بروتين وظَيفي واحد، والبروتين كما تعلم هو أساس الحياة، ووجد أن النتيجة هي 10 وأمامها 74 صفر من الاحتمالات، يعني 100 ترليون ترليون ترليون ترليون احتمال جرى على كوكب الأرض حتى أوجد الحياة، والمجرة كلها مكونة من 10 أمامها 63

صفر من الذرات، أي أن الذرات في المجرة كلها ولا أقول في كوكب الأرض فقط لا تسعُ عدد تلك الاحتمالات، وعمر الكون كله لا يتسع لمثل هذا الوقت من التجارب؛ فكيف يمكن للعشوائية أن توجد الحياة بهذه الدقة؟ إن ما تعتقده أشبه بشخصٍ معصوب العينين يبحثُ عن ذرة واحدة في المجرة كلها !

ثالثًا: كلنا يقرّ بأن الصدفة قد توجد شيئًا ما، لكننا نعلم أن للصدفة حدودًا! فإذا انسكب منيّ حبر على الأرض قد يرسم قطة بطريقة ما كحدٍّ أقصى لخيالي، لكن أن يكتب لك جملة مفادها أن تذهب إلى المكان الفلاني في الوقت الفلاني لتقابل شخصًا مواصفاته كذا فتقول له شيئًا ما ليعطيك شيئًا ما وحين تذهب تجد ذلك الشخص بالفعل ثم يعطيك هذا الشيء ويخبرك بأن الحبر انسكب عنده فكوّن جملة مفادها أن يأتي إليك ليعطيك ذلك الشيء! ثم تطلب منّي أن أؤمن بكل ذلك لأن الصدفة قد تفعله! بالطبع هذا عتَهٌ وجنون، أليسَ الكونُ إذا أعقَد من كل ذلك؟

نظر أحمدُ إليه بعينين متسعتين وقد أُلجم فوه، فابتسم الشيخ وقال هل من سؤال آخر؟

حل الصمت للحظات كادت تنتهي عندها الندوة لولا أن قال هادي:

- إذا كان لكلِّ موجودٍ موجِد، فلماذا الله ليسَ له موجِد؟
- لو أن هناك رصاصةً داخل مسدس في يد جندي، ولا يستطيع الجندي أن يُطلق الرصاصة إلا بأمرٍ من سيده، ولا يستطيع

سيده أن يأمره إلا بأمرٍ ممن فوقه، ولا يستطيع من فوقه أن يأمره إلا بأمرٍ ممن فوقه.. وهكذا إلى ما لا نهاية، فلن تطلق الرصاصة للأبد، لأن كل واحدٍ في السلسلة يعتمد على من فوقه ولا نهاية لمن فوقه.. والكون يشبه الرصاصة؛ فلو كان لكل سببٍ فيه مسبب إلى مالا نهاية لما وُجِدَ الكون، فسيحتاج الله إلى خالق، ويحتاج خالقه إلى خالق، وقبل وجود ذلك الخالق سيوجد خالق وهكذا إلى مالا نهاية فلن نجد الكون من الأساس، لكن يجب أن يكون هناكَ ذاتٌ منقطعة عن الأسباب لا تحتاجُ إلى موجدٍ وموجودةٌ دون أن تُخلَق مثلما في الجيش قائدٌ أعلى لا يتلقى الأوامر من أحدٍ وإلا لما أُطلقت الرصاصة، ولما وُجد الكون .

- لستُ مقتنعًا !
- لا سبب لعدم اقتناعك، أمامك خيارٌ من ثلاثة خيارات، الأول: أن الكون وُجِدَ بلا خالق وهذا لا يمكن أن يكون وقد أسلفتُ أن العشوائية والصدفة واللاشيء لا يمكن أن توجِد ذلك النظام الدقيق المعقد..

والخيار الثاني: أن الكونَ أوجَدَ نفسه وهذا مستحيل فكيف يمكنني أن أخلق نفسي مثلًا؟ حين كنتُ عدمًا غير موجود كيف أستطيع أن أفعل شيئًا لأوجِدَ نفسي؟ أليس هذا هو عينَ ما تقوله حين تخبرني بأنه حدث انفجار فأوجدَ المادة والطاقة؟ وكيف حدث هذا الانفجار قبل وجود المادة والطاقة؟

والخيار الثالثُ: أن هناك إلهًا عليمًا خبيرًا قادرًا يسمع ويرى كان قبل كل شيءٍ ولا خالق ولا موجد له هو الذي أوجد هذا الكون ..

- كيف يمكن ذلك؟ كيف يمكن للإله أن يكون موجودًا بلا بداية؟ كيف يمكن له أن يتفلت من الزمن ؟

تبسم الشيخ ثم قال :

- مشكلتك أن تُخضع الإله غير المخلوق لمقاييس وقوانين هو خلقها، كيف يُمكن أن تُحاكمه للزمن وهو من أوجد الزمن؟، كيف يمكن أن تخضعه لقوانين تسري عليك أنت لأنها تحكمك بينما لا تسري عليه لأنها لا تحكمه؟، تخيل معي حوارًا يدور بين طفلين في رحم أمهما، أحدهما يقول بأنه يمكن أن يكون هناك شخصٌ يعيش بلا حبلٍ سُريٍّ والآخر يرفض الإقرار بذلك، ما أشبه حوارهما بحوارنا الآن! ،

بل تخيل معي أن هناك روبوتين يتناقشان حول إمكانية التحرك بلا بطاريات، أحدهما يرفض والآخر يقبل ! ما أشبه حوارهما بحوارنا الآن ! عقلك المحدود لا يمكنه أن يحكم على اللامحدود.. فلا تخضع الإله لمقاييسك التي تكونت من خبرة 20 عامٍ تقريبًا وستنتهي بعد 60 عامٍ على الأكثر حين تموت !

نظر هادي لدانيال كأنما يقول له ما الذي أتى بنا إلى هنا !، فقال دانيال بنبرة منكسرة :

- لكن العلم قد فسّر كل شيء، فسر لنا كيف نشأ الكون وكيف وجدت الحياة، فما الحاجة إلى وجود إله؟ لقد كان الدين فقط وسيلة لتفسير الأشياء التي نجهل الطريقة التي وُجدت بها !

تأمل الشيخ وجهه قليلًا ثم ارتشف رشفةً من الكوب أمامه على الطاولة وقال :

- حقًا؟ هل أنت مقتنعٌ بما تقول؟ هل أفسر لك كيف صمم مخترع السيارة سيارته ثم أنكر وجوده بعد ذلك؟، فكيف إن كنتُ أعجز أصلًا عن إيجاد سيارة! أو ذرة من سيارة !.. العلم والعلماء والبشر مجتمعين لم يستطيعوا أن يوجدوا خلية حيّة من العدم !، ألم تسمع عن النعجة دولي؟ كيف أوجدوها؟ هل استطاعوا أن يوجدوها من العدم؟ إنها أكبر دليل على عجزهم أمام الله !

نطقَ عُمرُ أخيرًا بعد طول صمت :

- لكن الإلحاد في الحقيقة يدعو إلى الرقي والتحضر، أما الإيمان فيجعل المجتمع متخلفًا كما هو مجتمعنا !

وجه الشيخ بصره إليه ثم قال:

- أرى أنك تغير الموضوع لكن لا بأس، سأعتبره عجزًا منكم عن الرد على ما قلت ..

تبادل الجميع النظرات بعدما اكتشفوا أن الشيخ علم علاقتهم ببعضهم، ثم اقتربوا من بعضهم شيئًا فشيئًا حتى تجمعوا في مكان واحدٍ في الأمام، وتابع الشيخ :

- في الحقيقة إن التحضر والرقي سببه العمل، والتخلف والضياع سببه الكسل، ومجتمعاتنا إنما تخلفت بسبب ترك العمل لا بسبب إيمانها، وإلا فحجتك باطلةٌ لأننا كنا قبل ذلك

متقدمين على الغرب ونحن مؤمنون، كذلك فالغرب غيرُ ملحدٍ بل يدينُ بالمسيحية ومع ذلك فهو متقدم. فما علاقة الدين بالتخلف؟، إنك تقتطع شريحة زمنية قصيرة لمجتمعين ثم ترجع سبب تفاوتهما في التقدم إلى شيء لا علاقة له بذلك !

- لكنك لا تستطيع الإنكار أن الإسلام دين يدعو للحرب والدم !
- جيدٌ أنك تتكلم بلهجةٍ واثقة، لكن ليس جيدًا إنك تقف في المكان الخطأ، انظر إلى ما يحدث في كوريا الشمالية ثم أخبرني عن دينهم.. إنهم ملحدون. بالتأكيد سمعت عن هتلر، هل قرأت مذكراته التي كتبها بعنوان "كفاحي"؟ كل فكرته العنصرية التي ترتبت عليها الحرب العالمية الثانية والتي قتل فيها الملايين كانت بسبب اقتناعه بما يسمى الانتخاب الطبيعي الذي أسست لها نظرية داروين التي تعتبر عمدة عند الملحدين..

ثم تتهم بعد ذلك الإسلام بأنه دين الدم؟ كيف يكون دين الدم ونبينا يفتخر بأنه يُنصرُ بالرعب مسيرة شهر، أي أنه يُجنب الحروب بسبب أن الناس تخاف منه، ألا يدل ذلك على أنه يحب تجنب الحروب؟، نبينا منذ ألف وأربعمائة عام قال لجيوشه لا تقتلوا شيخًا ولا طفلًا ولا امرأة ولا تقطعوا شجرة.. والآن في حروب تلك الدول التي تدعي الرقي ونرى كثيرًا منا يسبح بحمدها ما أكثر دماء النساء والأطفال والشيوخ والعُزّل التي تسيل، فأينا يأتي بالدم ؟

من الذي قتل ملايين الهنود الحمر في أمريكا الشمالية؟ من الذي قتل سكان أستراليا الأصليين؟ من الذي قتل مليون جزائري؟ من الذي قتل عشرات الملايين في الحربين العالميتين؟ ليسوا المسلمين.. أليس كذلك؟

نبينا صلى الله عليه وسلم قال: " لا يزال المسلم في فُسحةٍ من دينه مالم يُصب دمًا حرامًا "، ولما دخل مكة وتمكّن من رقاب أهلها الذين قتلوا أحب الناس إليه وعذبوه وأهانوه ولو شاء لانتقم منهم بإشارة من إصبعه قال : "اذهبوا فأنتم الطلقاء"، أين هو دين الدم؟

لما حادت جماعات التكفير عن الفهم الصحيح للإسلام ارتكبوا كل هذه الجرائم الوحشية لينافسوا بها بعض غير المسلمين في وحشيتهم، ألا ترى كيف يكون فهمك الصحيح للإسلام حائلًا بينك وبين القتل؟

- لماذا دائمًا تأتي بالمواقف الجيدة، وتنسى آياتٍ مثل "اقتلوهم حيث ثقفتموهم"، "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله"، "جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم"؟؟

هذه الآيات نزلت تحميسًا للمسلمين أثناء قتالهم للعدو الذي جاء لقتلهم وطردهم من أوطانهم أو منعهم من تبليغ الحق للناس، ويجب أن تأخذ الدين كله من جميع الزوايا لترى الصورة مكتملة؛ فالذي قال "اقتلوهم حيث ثقفتموهم" هو الذي قال "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" وهو الذي قال "لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي"، فنحن لا نكره أحدًا على اعتناق الإسلام ولا نقتله لمجرد رفضه الدخول فيه، لكن هل تطلب مني أن أجلس مكتوف اليد أحمل وردة بيضاء أمام مغتصب جاء ليتعدى على ديني ووطني وزوجتي وأولادي؟ أليس هذا نوعًا من الجنون؟ مَن مِنَ البشر يفعل مثل ذلك ؟

دعنا نكمل النقاش فيما هو معقول لكلينا وإلا فلن نستفيد شيئًا حين نتناقش في ما هو معلوم لكلينا بالضرورة بطلانه ..

- هل هذا يعني أنك لا تقاتل إلا من يقاتلك؟ فلماذا كان ما تدعونه بالفتوحات الإسلامية؟ متى قاتل المصريون عمرو ابن العاص ليذهب ويقاتلهم ؟
- إننا نهدف لإبلاغ الناس بالحق، ومن حق جميع الناس أن يسمعوا ما نقوله ليقرروا بعد ذلك إن كانوا سيدخلون في الإسلام أم لا، فإن كان هناك طاغية يحكمهم ويمنعهم ذلك الحق في وصول رسالتنا إليهم ليقرروا مصيرهم ذهبنا لنمنع ذلك الطاغية من مصادرة حقهم في سماع دين الإسلام، كيف تقول أن عمرو بن العاص حارب المصريين؟ من الجيد أنك ضربت ذلك المثال تحديدًا، هل تعلم ما كان يفعله الرومان بالمصريين؟ كانوا يستعبدونهم وقد خلقوا أحرارًا، ويرمون من خالفهم في قدور الزيت المغلي.. حتى جاء الإسلام وحررهم من قيودٍ رسفوا فيها قرونًا، لذلك تلقاهم المصريون بالترحاب ودخلوا في الإسلام أفواجًا، وأسلم أجدادنا الأوائل لما دعاهم الفاتحون وحرروهم من الظلم فأسلمنا بعدهم ..

نحن دعاة الرحمة، لكننا نحمل السيف في وجه كل ظالم يمنع الناس من الوصول إلى سماع الحق ليقرروا مصيرهم.. ونحرر الناس من عبادة العباد والحكام إلى عبادة رب العباد والحكام.. أين ادعاؤك بأن ديننا دين دم؟

لم يترك هادي فرصة لعمر ليجيب فسارع بالسؤال:

- نعم، ثم تأتون بالعبيد من هذه الحروب، ونحن الآن فيما بعد الألفين تطالبنا بأن نرجع لعصر العبودية كما يأمر الإسلام!!

نظر إليه الشيخ نظرة مشفقٍ، علّها حركت بعض المشاعر داخل هادي إلا أنه تمالك نفسه وأبدى وجهًا خشبيًا صلبًا، ثم قال الشيخ :

- ادعاؤك هذا باطلٌ أيضًا وهدمه أبسط مما سبق، مشكلتنا الحقيقية في تلك المسألة هي الصورة التي تكونت عندنا عن العبودية والرق من أفلام هوليود، صورة السوط والسيف والضرب والتعذيب، وهي عين ما جاء الإسلام ليحرر العبيد منه قبل أن يفكر العالم كله بذلك؛ فقد جاء الإسلام والعالمُ أجمع يقر نظام الرق والعبودية فحض على تحرير العبيد جاعلًا أعظم الكفارات تحرير رقبة ككفارة الحنث في اليمين والنذر وكفارة القتل الخطأ والظهار وإفساد الصوم في رمضان، وغيَّر الرحمن فكرة العالم عن العبيد فشرع تشريعاتٍ تحولهم من العبودية إلى ما يشبه الخدم في عصرنا الحالي، فنهى عن ضرب العبد وجعل كفارته عتقه، وأمر بأن تطعم العبد من طعامك الذي تأكل منه، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم: "إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم"، فالعبودية في الإسلام ليست هي عبودية السوط والتعذيب والعمل في مناجم الماس، إنما هي أقرب للخدمة في عصرنا الحالي منها للعبودية في الأفلام الهوليودية، وهذا طبيعي بين البشر؛ فقد سوى الإسلام بين الحُرّ والعبد وأذاب حاجز الطبقات الاجتماعية فجعل المميز لكل فرد في البشر عن الباقين هو عمله، أما أن يخدم بعض البشر بعضهم فهذا مما لا بد منه لاستمرار الحياة والتفاعل بين المجتمع؛ فما الطبيب

وهو يداوي مريضه إلا خادمٌ له حينها، وما المهندس وهو يبني بيتي إلا خادم لي وقتها، والفرق أن العبد يصير خادمًا طول الوقت، لكن هذا عمله، وإنما المانع الأخلاقي في الحقيقة هو التفريق بين الطبقات وهو عين ما جاء الإسلام لينهيه ويقضي عليه، حتى أن مشركي العرب كانوا يرفضون الدخول في الإسلام قائلين :"إنه دين يسوي بين السادة والعبيد" فكيف تقول إن الإسلام هو دين العبودية وهو الذي حضَّ على تحرير العبيد قبل أن يتفق البشر على ذلك بأكثر من ألف عامٍ، بل وغيَّر فكرة البشر كلهم عن نظام الرق فسوى بين العبد وسيده وقال هم إخوانكم؟

- لكن المانع الأخلاقي الحقيقي ليس هو التمييز الطبقي بين الأسياد والعبيد فقط، بل إن الأزمة الأخلاقية الحقيقية هي كون الإنسان متملّكًا وكونه سلعة تباع وتشرى وله ثمن يقدّر به!
- أحسنت.. لكن عند هذه النقطة سنحتاج للعودة إلى أصل الأمر ..

من أين أتى العبيد؟

إن العبيد في أصلهم أُسارى حربٍ مقاتلون، وقعوا في الأسر بعدما هُزمت جيوشهم التي تهاجم المسلمين وتعتدي عليهم، وهؤلاء لهم على مستوى العالم حلّ من ثلاثة حلول.. إما العفو، وإما المفاداة بمال أو أسرى من جيوش المسلمين، وإما القتل ..

فأما العفو فلا يستطيع أحدٌ أن يطلب منك العفو عمن كان يقاتلك منذ قليل، ولا يوجد عاقل يعيب على من لم يعفُ عنهم.. ولهذا فيُعفَى عمن يستحق العفو ويُترك الباقون للفداء أو القتل ..

وأما الفداء فهو بيد الجيش المهزوم، فلو أنه دفع المال سيفتدي أسراه، فماذا لو نفد ماله ولم يعد لنا أسرى عندهم نبادلهم بأسراهم؟

يبقى القتل.. هل تطلب مني أن أقتل كل الباقين لأن دولهم عجزوا عن الدفع لافتدائهم؟ بالطبع لا!، فلا يُقتل إلا مجرمو الحرب الذين يستحقون القتل.. ويبقى الآخرون، فماذا نفعل بهم؟

هل نسجنهم؟ دولةٌ خرجت لتوها من حربٍ واقتصادها مهزوزٌ على المحك، هل من العقل أن تدخل الآلاف في سجونها تطعمهم وتسقيهم بلا إنتاجٍ فيصيروا عبئًا على الاقتصاد المتردي لظروف الحرب؟

إذا فما الحل؟ الحلُ أن يسلموا إلى أفراد المسلمين ليطعموهم ويشربوهم مقابل أن يعملوا لخدمتهم، وهذا قريبٌ من المثل الشعبي الذي يقول "يعملوا بلقمتهم"..

لكن هل هذا يعني أنهم سيقضون عمرهم كله عبيدًا؟ لا.. لقد ترك الإسلام لهم فرصة ليحسنوا من سلوكهم الاجتماعي، ويصبحوا أفرادًا قادرين على التعايش مع المجتمع بعد أن يكفّروا عن خطئهم في التعدي على المسلمين وقتالهم، فقال تعالى "والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرًا"، فالله تعالى برحمته يقول للمسلمينَ إنِ طلب العبد من سيده أن يتعاقد معه على: أن يعمل ويحصل المال فيدفعه له مقابل أن يحرِّر نفسه، ورأى سيده أن سلوكه جيد؛ فليوافق سيده . ويُسمي ذلك عقد مكاتبة.

بل فوق ذلك قال الفقهاء إنه عند المكاتبة يجب على السيد أن يترك للعبد وقتًا يعمل فيه ويحصل المال ليتمكن من تحرير نفسه..

إذا فالإسلام قد ترك لأولئك الأسرى الذين لم يبق لهم خيار إلا القتل – وهم يستحقونه- فرصة للعيش مرة أخرى، فأطعمهم وسقاهم لكن ليس على نفقة الدولة الخارجة لتوّها من حرب، بل مقابل أن يكونوا عبيدًا يخدموا فيأكلوا مقابل خدمتهم، وترك لهم فرصة للحَرية مرة أخرى مقابل أن يحسنوا من سلوكهم الاجتماعي ويحرروا أنفسهم..

وكل ما ينطبق عليهم ينطبق على ذراريهم من بعدهم..

أليس كل ما سبق هو دليل على رحمة الله تعالى بالناس، فقد وهبهم فرصة جديدة للحياة بعد أن استحقوا الموت، ووهبهم فرصة جديدة للحرية بعد أن استحقوا العبودية؟

صمت هادي صمت مهزومٍ ما عاد يجد جوابًا، ونطقت منى أخيرًا قائلة بنبرة يظهر فيها الحنق والحدة :

- لكن نبيكم نبي الجنس، كان يتزوج الأطفال.. تزوج هو تسع نسوة ! كان مهووسًا بالجنس!

هاجت القاعة وماجت وارتفعت أصوات الناس بعد طول ترقب، وكادوا يبطشون بهم لما قالت منى ما قالت لولا أن هدأهم الشيخ بيديه وسيطر بحنكة على الموقف قبل أن يتحول إلى كارثة، ثم نظر إلى منى وقال:

- ما أسهل التطاول وما أصعب الاستدلال، قلتِ نبينا نبيّ الجنس ونسيتِ أن الذي يدعو للحرية المطلقة للجنس ويبيح ممارسة الجنس مع الأم والأخت والأطفال بل وحتى الحيوانات هم الملحدون وليس المسلمون، الذي يفرق بين الحيوانات والبشر

في ممارسة الجنس هي القيود الضابطة التي فرضها الإسلام ثم تتهمين نبي الإسلام بأنه نبي الجنس ؟

تقولين إن النبي صلى الله عليه وسلم كان مهووسًا بالجنس !!

بقراءة مختصرة لسيرته صلى الله عليه وسلم نرى أنه تزوج وهو في الخامسة والعشرين من السيدة خديجة ولم يتزوج عليها حتى بلغ الخمسين من عمره وماتت، وهذه الفترة هي ذروة الشهوة! فإن كان كما تقولين مهووسًا بالجنس فأين أثر ذلك في تلك الفترة؟ ثم ظل بعد ذلك ثلاث سنوات لم يتزوج حتى تزوج سودة بنت زمعة ذات ال69 عامًا بعد أن عادت من الحبشة ومات زوجها ولم تجد من يحميها !، ثم تزوج عائشة رضي الله عنها البكر الوحيدة، ثم تزوج أم سلمة كبيرة السن صاحبة الأبناء، ثم تزوج رملة بنت أبي سفيان لما تنصَّر زوجها في الحبشة وخشي المسلمون عليها وهي في بلادٍ غريبة فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي يخطبها، وكان هذا الموقف الرجولي المبهر من رسول الله صلى الله عليه وسلم سببًا رئيسيًّا في إسلام أبي سفيان فيما بعد ..

ثم تزوج جويرية بنت الحارث من بني المصطلق، فأعتق المسلمون بزواجها من رسول الله صلى الله عليه وسلم كل الأسرى والسبايا من بني المصطلق؛ فكان ذلك سببًا في إسلام أبيها وقومه وتحرير المئات من العبيد، ثم تزوج السيدة صفية رضي الله عنها والتي كانت من يهود بني النضير وابنة زعيمها، بعد أن وقعت في الأسر وكانت قد رأت رؤيا أن القمر يسقط من السماء في حجرها فأول لها ذلك بأنها ستتزوج نبي العرب، وكان عندها القابلية للإسلام لأنها سمعت أباها وعمها يتحادثان بأن دين الإسلام هو دين الحق فلما تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم

شجع المسلمين على إعتاق الرقيق وشجع اليهود على اعتناق الإسلام أو على الأقل كف أذاهم عن المسلمين ..

فأين الهوَسُ الجنسي في زيجاتِ رجلٍ تزوج عجائز ليصونهم بعدما شردتهم الظروف، وتزوج سبايا بعد أن أعتقهم ليحض على إعتاق الرقيق؟

أين الهوس الجنسي في حياة رجل قضى عمره من الـ25 إلى الـ50 مع امرأة واحدة ؟

أما قلتُ لكِ ما أسهل التطاول وما أصعب الاستدلال؟

قالت منى وقدت بدت نبرتها مترددة :

- لكنك لم تجبني.. كيف يمكن له أن يتزوج طفلة ؟
- طفلة؟ وما ضابط الطفولة عندكم؟ 18 عام؟ فماذا لو كانت 18 عامًا إلا يومًا؟ هل نمنعها حقها في الزواج لأنها تنقص يومًا عن سنٍّ وهمي؟ وكيف بها إن كانت 20 عامًا لكن بها نقص في هرمونات معينة يجعلها غير قادرة بعد على الزواج وما فيه من حقوق ؟

إن تقدير إمكانية الزواج من هذه الأنثى من عدمه يخضع لشرط مهم جدًا، هو أن لا يكون هناك ضرر يلحق هذه الأنثى من الزواج.. وهذا الضرر إما أن يكون جسديًا أو نفسيًا ..

ونحن نعلم أن الضرر الجسدي يقدر لكل امرأة بقدرها، فقد تكون الفتاة فوق العشرين ولا تتحمل تبعات الزواج الجسدية، وقد تكون في التاسعة وتتحمل الزواج جسديًا ..

أما الضرر النفسي فهو يختلف باختلاف الثقافات والمجتمعات والأزمنة.. ففي عصر النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن هناك غرابة في تزويج الصغيرات، كما أننا الآن ببساطة نجد بعض المزارعين في بعض القرى يزوجون بناتهم في سنٍّ صغيرة ولا غضاضة عند البنت أو مجتمعهم عمومًا في ذلك.. وإن المتفحص لثقافة العصور السابقة يجد أن ذلك الأمر كان معتادًا عندهم مما لا يؤثِّرُ على نفسية الصغيرة إذا تزوجت..

فقد كانت الملكة إيزابيلا زوجة الملك فيليب الثاني عند سن عشر سنوات وكان هو في الخامسة عشر من عمره، وتزوج ريتشارد الثاني ملك إنجلترا وعمره 15 عام بينما كانت زوجته 7 أعوام وكان عمر زوجته الأولى 15 عامًا، وتزوج الملك إدوارد الثالث ملك إنجلترا من الملكة فيليبا وعمرها 13 عام، وتزوج الملك تشارلي الرابع ملك فرنسا من الملكة بلانشي وهي في الثانية عشرة من عمرها.. ومثل هذا مئاتُ الآلاف من الأمثلة في التاريخ وهم أقرب إلينا من عصر النبي صلى الله عليه وسلم ..

فإن كان زواج البنت لا يترتب عليه ضرر جسدي ولا نفسي لها فما المانع الأخلاقي من ذلك؟

أما إن كان يترتب عليه ضرر جسدي أو نفسي فقد نهانا النبي صلى الله عليه وسلم عنه فقال: "لا ضرر ولا ضرار"

وأزيدك من الشعر بيتًا بأن أرباب الحرية في الغرب لا يمانعون من ممارسة الجنس بين الأطفال، بل يعدون ذلك حقًا لهم كما تنص قوانين منظمات حقوق الإنسان هناك، ومن القوانين ما يمنع الأب من التدخل

بين الأطفال ليمنع علاقاتهم الجنسية، ويعلمونهم في ذلك الوقت ما يدعى بالممارسة الآمنة للجنس!

إذًا فعلّة المنع ليست المعاشرة، وإنما منعوا مجرّد العقد فقط وأباحوا المعاشرة!! وهذا عين نشر الفاحشة عمدًا بين المجتمع ليترتب على ذلك اختلاط الأنساب وضياع الحقوق !

كما أن الطب أثبت أنه لا علاقة بين سن الـ18 وبينَ اكتمَال بلوغ المرأة فسيولوجيا ونفسيًا ! فمن أين لكم بهذا؟

هل تعلمين أن بعض الولايات في أمريكا الآن ينص قانونها على أن الحد الأدنى لعمر الزواج 13 عام لكن يشترط موافقة الأب؟

فلماذا تقبلتم كل ذلك ووقفتم عند الإسلام الذي يضبط المسألة فيجعلها أخلاقية إنسانية بشكلٍ كامل؟، حتى قال ابن عثيمين -الذي تعدونه من أشد المسلمين تشددًا- إنه في مجتمعاتنا الحالية والتي انتشر فيها الفساد والضرر من وراء تزويج الصغيرات ولم تعد كمجتمع أبي بكرٍ وعمر؛ قد تباح الفتوى بإيقاف زواج الصغيرات منعًا لضرر أكبر.

تفقدت منى أوجه الحضور فوجدت الشرر يتطاير من أعينهم، وفطن الشيخ لمشاعر الناس المشحونة فخشي أن ينقلب الحال إلى معركة بينهم وبين الملحدين فقرر تولّي زمام الأسئلة فسألهم هل من سؤالٍ آخر؟

فصمت الجميع فقال الشيخ: لكن أنا لدي أسئلة:

- لماذا لا يمكنني أن آكل لحمًا بشريًّا آخر حينَ أجوع إذا كنتُ أنا مجرد حيوانٍ لاحمٍ أوجدتني الطبيعة بلا خالقٍ وليس من حق أحدٍ أن يقيدني بقوانين؟

نظر الملحدون إلى بعضهم البعض وارتفعت همهمات الناس معجبين فتابع الشيخ:

- كيف يمكن للملحد أن يعيش ضمن مجتمعٍ إلا إذا التزم بضوابط يتفق عليها مع أفراد ذلك المجتمع؟ وكيف يمكن له أن يلتزم بتلك الضوابط إذا تعارضت مع مصلحته الشخصية المباشرة؟ فمثلًا أنت ملحدٌ في مجتمعٍ يجرّم السرقة، لكنك تحتاج المال.. لماذا قد تحترم القانون ولا تقدم على السرقة إذا كنت تضمن أنه لن يعرف أحد من السارق؟ لماذا تفعلُ هذا إذا كنت لا تؤمن بإله سيحاسبُك؟

تبادل الملحدون نظراتٍ سريعة وبدأ العرق يلمع على جباههم فقال الشيخ:

- هل نتصور أن شخصًا مثل هتلر بعدما تسبب هو وقادة الغرب في قتل 65 مليون شخص قتلًا مباشرًا قد هرب من العدالة بأنه انتحر ببساطة، ولن يحاسب على كل ذلك؟ هل هذا ما يقوله الملحد ؟

نادى أحد الحضور بصوتٍ مرتفع يخاطب أفراد الشلّة : لماذا تصمتون؟ هل أكلت القطة ألسنتكم الآن ؟

وتابع الشيخ:

- ما هو السبب الذي يجعل الملحد يلتزم بأي خلقٌ حميدٍ أو ضابط أو قانونٍ أو قيمةٍ أو معيار إذا عارضت في مرة مصلحته المباشرة ؟

إذًا فإن كان لا يوجد سبب.. فكيف نتخيلُ مجتمعًا بلا ضوابط ولا قوانين ولا قيَم ولا أخلاق ولا معايير؟ هل تخيلت معي شكل العالم إذا صار كله ملحدًا؟

وإذا كان الإلحاد هو الصحيح والبديهي؛ فلماذا إقناع الناس به أمرٌ صعبٌ تتحملُ عناءه دائمًا؟ ولماذا الوثوقُ فيه يحتاجُ لمشقةٍ وتعب؟

لماذا أنت دائمًا غير مُرتاح؟ صدقني لن أدخل معك في مهاتراتٍ بائسةٍ حولَ ذلك الأمر، فأنا لا أعلم ما بداخلك إلا علاماتٍ أراها على ثنايا وجهِك، أما أنت فتعلم جيدًا ذلك الشعور الذي يختلجك من حينٍ لآخر بسبب قرارك باعتناق الإلحاد ..

أين تلك الطمأنينة والراحة التي كنت تجدها في الإسلام؟ لماذا غادرتك ما إن خرجت منه؟

صدقني يمكنك إقناع الناس بأنك مقتنع.. يمكن الادعاء بأنك مطمئن.. لكن ما أقسى تلك الساعات التي تمر عليك وأنت وحدك.. حين لا تكون محتاجًا لارتداء أحد تلك الأوجه المبتسمة فيظهر وجهك العابس !

ما الذي يدفعك إلى الاستمرار في حياةٍ لا تعلمُ فائدتها؟ ما الذي يدفعك إلى حبها؟ ما الذي يجعلك تصبر على مجاهدة ظروف الحياة ومعتركاتها إذا كانت حياة بائسة عبثية لا هدف لها ولا غاية ؟

وجّه الشيخ بصره إلى جميع الناس ثم تابع:

- أيها السادة.. إن الإلحاد دينٌ يعتمد في أغلب جوانبه على الإيمان بغيبيات كنظرية نشأة الكون وغيرها، وله مقدسات لا يقبل النقاش في صحتها كنظرية التطور وغيرها، والملحد يعبدُ عقله وهواه !

فادعاء الشخص أنه لا ديني محض وهم، فاللادينية ما هي إلا دينٌ فاسدٌ من ضمن الأديان الفاسدة، ومعتقد باطلٌ من ضمن المعتقدات الباطلة

صمت الشيخ ينتظر تعليقًا فلم يجد، بلباقة أنهى المناظرة الطويلة قبل أن يحولها الناس إلى حربٍ مع هادي ورفاقه.. وانفض الناس تباعًا تاركين تعليقاتهم تترامى إلى آذان أفراد الشلة الذين ينظرون إلى الأرض مذهولين من مفاجأة لم يتوقعوها !!

وقال دانيال لهادي:

- سحقًا لليومِ الذي جئنا فيه إلى هنا.

فقال هادي بهدوء غريب :

- بل سحقًا لليوم الذي جئنا فيه إلى الدنيا، والآن تأكدتُ أنه ما من سبيل للراحة إلا مفارقتها !

ذهل كل أصدقائه لِما يعاود التفكير فيه بعد أن ظنوه طرده من رأسه، وقبل أن يعلقوا بكلمة حبسوا أنفاسهم جميعًا لما رأوا الشيخ يقترب منهم مبتسمًا يسبقه عطره..

وصل إليهم بعد انصراف الناس فمدَّ يده بالسلام.. بدأ بدانيال فسلَّم بصمت، ثم بعِمر وأحمد.. ولما لامس كفه كفَّ هادي ارتعد الابن فقبض الشيخ يده مستغرَبًا !، وتدارك الموقف قائلًا:

- أعتذر عن عدم قدرتنا على بسط المواضيع بشكلٍ أفضل بسبب الناس، ولكن إن شئتم أكملنا في إحدى الكافيهات الراقية القريبة من هنا ..

تبادل الشباب النظر إلى بعضهم، كأنما قرأوا نظراتهم دون تكلُّم.. إنها فرصةٌ أخيرة لا تعوّض قد تجعل هادي يعود عن ما عزم عليه.. أبدوا جميعًا الموافقة بينما صمتَ هادي إذ كان يبكي لا يواري بكاءه إلا ذلك الوجه الذي يرتديه !

*****

انصرف النادل بعدما تلقى الطلبات، وقال الشيخ :

- أنا شريف محسن، دكتور في الجامعة الإسلامية.. أحب المناقشة مع الشباب في أعماركم وأستفيد منها كثيرًا، فعلى أكتافكم تنهض الأمم وتبنى الحضارات ..

ما أعلمهم بك وما أجهلك بهم ! ها أنت أيها الأب أمام ابنك بعد عشرين عامًا تاه فيها بين طرقات الحوادث!، أتراك ذابحُهُ كما ذبحته أول مرة؟

كانت مشاعر الجميع متفاوتةً لا يجمعها إلا الاستغراب، كيف يمكن لشخصٍ مثل هذا أن يرمي ولده ! أين ذلك الوحش القاسي الذي سمعنا عنه من ذلك الذي نراه أمامنا؟

وحدّث هادي نفسه: تحنو على الشباب إلا ابنك؟ أين كان هذا الحنان منذ عشرين سنة طحنتني دقائقها وثوانيها ؟

عرّف الشباب أنفسهم للشيخ على مضض، وقال هادي: اسمي هادي محمد الرحيمي، عجب أصدقاؤه له لكن لم يعلقوا وقال الشيخ إن كان من استفسارٍ آخر فلا مانع من النقاش فيه الآن مستغلين هذا الهدوء، فقال عمر بعد صمت:

- إن كان الله رحيمًا كما تقول فلماذا خلق كل ذلك الشر في العالم؟ لماذا نرى من يموت جوعًا؟ لماذا نرى من يئن من المرض ويصرخ من الألم؟ أين الرحمة في ذلك ؟

أجاب الشيخ مبتسمًا :

- إن شعورك بالألم والشر ونفورك منه دليلٌ على أن الأصل في تكوينك وطبيعتك الخير والرحمة، وأن الغالب على حياتك هو عدم الألم، وإلا فلو أنك لا تشعر إلا بالألم لما أحسست بغرابته من الأساس، فما من كائنٍ إلا وتناله رحمة الله عز وجل..

كما أنه أحيانًا لا بد من وقوع بعض الشر لتحصيل خيرٍ أكبر، ألا يبتُر الطبيب قدم المريض حفاظًا على حياته؟ ما رأيكَ في أن أصور لك الطبيب وهو يقطع قدمه ثم قلت لك أترى كيف يفعل هذا القاسي؟ أترى ما الذي يفعله في المسكين؟

ما رأيك؟ بالطبع يكون هذا ظلمًا لأنني اقتطعت فعله من سياقه ثم حكمت عليه، بينما هو في الحقيقة يقوم بعمل نبيل وهو إنقاذ حياته..

فما أدراك أن هذا الذي يتألم لم يُدفع بألمه ضررٌ أكبر ويحصل له خير ما كان ليحصله إلا بذلك الألم؟ إما في الدنيا أو يوم القيامة..

لعلك تقول إن الله قادرٌ على أن يفعل ذلك الخير من دون إيجاد بعض الشر، فينقذ المريض من الموت من دون قطع قدمه.. لكنه في الحقيقة

سيحرمه من خيرٍ أكبر إن فعل ذلك، سيحرمه من الصبر والدعاء والتضرع الذي يرفع درجاته ويزيد له في الأجر والثواب قال تعالى "فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا".. سيحرمه من غذاءٍ روحي شدَّ ما يحتاج إليه.. التضرع إليه والبكاء بين يديه واللجوء والقرب منه، فما ابتلاه إلا ليراه ساجدًا في محرابه مقتربًا منه خاضعًا له لتنتشي بذلك روحه وتحيا بعد ما رمّت، فكلما قسى قلبه ألانه بالبكاء، وكلما جاعت روحه أطعمها بالتضرع والقرب منه، فكيف لذلك أن يحدث لولا الشر ؟

لكننا في النهاية لو قارنا مجموع الخير في العالم بمجموع الشر، لوجدنا أن الخير أكبر من الشر بكثير، ونحن في دار اختبار وابتلاءٍ جعلنا الله فيها؛ فلا بد من وجود الشر ليتوازن ذلك الاختبار ونستحق بعده الثواب أو العقاب .

طأطأ عمر رأسه كأنما اقتنع بكلام الشيخ ولم يجد ردًا، وظل هادي يتظاهر أنه لا يهتم لما يحدث، بينما قال أحمد :

- لكن كيف يحاسبنا الله على ما فعلنا نحن إذا كان قدره هو علينا قبل ذلك كما تدعي؟
- الله تعالى يحاسبك على ما تفعله أنت باختيارك، لكنك لن تستطيع تنفيذه رغمًا عنه تعالى عن ذلك علوا كبيرًا..

وأضرب لك مثالًا بسيطًا ليتضح الأمر..

إذا تزوج رجلٌ وامرأة، هل تكفي المعاشرة فقط ليوجد الابن؟ أليس في كثيرٍ من الأحيان تحدث المعاشرة ولا يحصلان على الابن؟

إذًا ففعلهما باختيارهما وحده لا يكفي للحصول على الابن بل يجب أن يشاء الله ذلك، كذلك فقد أراد الله تعالى ألا يأتي ابنهما من دون معاشرة،

حتى يكون ذلك الناتج مترتبًا على فعلهما باختيارهما ليحاسبهما عليه.. لكنه إن شاء أن يأتي به من دون معاشرة فهو يقدر كما فعل مع مريم البتول وفي هذه الحالة لن يحاسبهما على ذلك الابن لأنه لم يكن نتيجة فعلهما، كما أنه لم يحاسب مريم من أين جاءت بابنها من دون أبٍ –كما نعتقد- لأن المجيء به لم يكن مترتبًا على فعلها ..

إذًا فما يفعله الإنسان لن يستطيع أن يفعله دون أن يأذن الله له بفعله، لكنه يحاسب عليه لأنه فعله بإرادةٍ واختيار ..

ولا يمكن له أن يدعي أنه مجبر لأن هناك فارقًا نشعر به بين ما نحن مجبرون عليه مثل نبض قلبنا الذي لا نستطيع التحكم في إيقافه أو البدء فيه، وبين ما لسنا مجبرين عليه مثل المشي والأكل والشرب والكلام.. نفعلها متى شئنا ونمسك ومتى شئنا.. فيتسحيل أن يقول عاقلٌ أن تحرك الدم في عروقه يشبه تحرك يده وهي تضرب شخصًا آخر.. ففارق كبير بين ما خلق الله لنا فيه إرادة وحاسبنا على ما نفعله بها كحركات أغلب الجوارح وبين ما سلب قدرتنا فيه ولم يحاسبنا عليه كنبض قلبنا وحركات رئتينا وأمعائنا.

ولا فارق للإنسان بين أن يكون الله قد قدَّر عليه ما سيفعله الآن أو من خمسين ألف سنة، لأنه في النهاية لا يعرف ما قُدر عليه، ولن يحاسب عليه إلا حين يفعله باختياره.. ومعنى أنه قدره الله عليه أي أنه لن يستطيع أن يفعله باختياره إلا إن أراد الله ذلك.

وأكرر لك مثال الأب والأم والابن، فالأب والأم هما الإرادة والقدرة والابن هو الفعل المترتب عليهما والله هو الذي خلق الأب والأم أي الإرادة والقدرة فلا تنفذان باختيارهما وإرادتهما إلا بعد إذنه، قال تعالى : "وما تشاءون إلا أن يشاء الله"

فهمت منى الكلام بصعوبة لكنها فضّلت ألا تعلق على ذلك، وأومأ عمر برأسه كأنه استوعب ما قيل، وبدا الانتباه على هادي قليلًا بينما تابع أحمد الأسئلة فقال :

- حينما كنت مسلمًا كنت أدعو الله كثيرًا فلا يستجيب لي، فإن كان موجودًا فلماذا لا يستجيب لي مباشرة؟! هل من الصعب عليه أن ينفذ طلبي؟
- لا.. بل لا يعجزه شيءٌ سبحانه لكن دعني أقرر مبدأً مهمًا، من الذي من حقه أن يوجب على الله إجابة دعائه؟ من له الحق في أن يفرض عليه أمرًا ثم يستغرب حين لا ينفذه الله؟ أنت تدعو الله أي تطلب منه لا أنك تأمره، فإن شاء قبل طلبك وإن لم يشأ لم يقبل، وإجابة الدعاء لها شروطٌ..

فيجب أن يكون مطعمك ومشربك وملبسك حلالًا وإلا منعت إجابة دعائك، ولا يستجاب للذي يدعو بإثمٍ أو قطيعة رحم، ولا للذي يعجل بالدعاء فيقول لماذا لا يستجيبُ الله لي..

كذلك فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها ."إذًا فالله عز وجل لا يعطي إلا لحكمة، ولا يمنع إلا لحكمة، وقد ترى الشيء مصلحة ظاهرة، ولكن الحكمة لا تقتضيه؛ فقد يخفى في الحكمة فيما يفعله الطبيب من أشياء تؤذي في الظاهر يقصد بها المصلحة؛ فلعل هذا من ذاك.. ثم إن الله تعالى له الحكمة البالغة، فأسماؤه الحسنى وأفعاله تمنع نسبة الظلم إليه،

وتقتضي ألا يفعل إلا ما هو مطابق للحكمة، موافق لها؛ فتأخُّر الإجابة قد يكون عين المصلحة للداعي وإذا فوَّض العبد ربَّه، ورضي بما يختاره له أَمَدَّه فيما يختاره له بالقوة عليه، والعزيمة، والصبر، وصرف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه، وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه.

مضى الحديث على هذه الوتيرة الهادئة من الأسئلة والأجوبة، ولم يخرج هادي عن صوم لسانه عن الكلام وسبات صوته عن الظهور، لم ينقطع لحظة عن التفكير في ذلك الشيخ المتناقض، إن كان كذلك فلماذا شرّدني؟ أتحنو على الناس وتقسو عليَّ وأنا من لحمك ودمك؟ أين كنت أيها الشيخ يوم كانت أين لا تحمل كل ذلك الوجع؟! ما أبأسني بك وما أسعدك بلا إياي !

انقضى المجلس بعد أن تبادلوا أرقام الهواتف، ودعاهم الشيخ لحضور ندوة قادمةٍ له في إحدى قاعات وسط البلد، وأعلمهم بأنه ينتظر رأيهم في الندوة بعد انقضائها..

تكررت الندوات وتكرر حضورهم أملًا في أن يكون ذلك معطلًا لهادي عمَّا في رأسه حتى ينساه، وتكررت دعوات الشيخ لهم للجلوس بعد الندوة في أحد الكافيهات ثم المناقشة في أمورٍ شتى كانت تنتهي في النهاية للمناقشة في الأديان والعقائد ..

ومع زيادة الوَدِّ والمقابلات، رُفعَت الكلفة بينهم أكثر من ذي قبل، واقترح دانيال عليهم أن يدعو الشيخ يومًا لقهوتهم فوافقوا جميعًا بلا ترددٍ ولم يبد هادي إيجابًا ولا سلبًا..

وكلم أحمد الشيخ في الهاتف يدعوه لقهوتهم ليلًا فقال الشيخ :

- وإن كان لدي موعدٌ إلا أني سأؤجله قليلًا لألبّي دعوتكم، لكنني لن أستطيع الجلوس أكثر من ساعة !

*****

في الليل حضر الشيخ ورأى القهوة للمرة الأولى، ومن بضع سنين كان ابنه قبله، ما أبدع القدر بمفارقاته !

جلسوا جميعًا وبدأوا بالحكي له عن قصصهم وقصة قهوتهم، وظروف أغلب روادها ومعتقداتهم.. ما أشبه حكيهم له بحكيهم لصِنوه من قبل ..

مالت منى على عمر تسأله:

- أترى هادي يقتنع أن يصارحه بكل شيءٍ وتنتهي مشكلته؟
- سأكلمه أنا ودانيال في هذا الأمر الليلة، فلا تقلقي .

سريعًا انقضت الساعة فاستأذن الشيخ وانصرف مبتسمًا، وأكمل أعضاء الشلة جلوسهم، تنحنح عُمر ثم بدأ في الحديث مع هادي :

- نريد أن نحادثك في أمرٍ هام.

لم يرد هادي فقال دانيال:

- كما ترى يا هادي، ها هو أبوك أمامك! وإنا نرى أن أفضل الحلول أن تصارحه بكلِّ شيء عله يكون هناك سوء تفاهم فتنتهي الأزمة !
- من أخبرك أن هناك أزمة ؟.. لا أزمة، لست بحاجة إليه ..

قالت منى:

- نعم لست بحاجة إليه، لكن لا شك أنك ستكون بحال أفضل حينما يعرف أنك ابنه، خصوصًا وأنه لن يضايقك لأجل معتقدك كما يبدو لنا!
- أحسنتِ قولًا.. كما يبدو لكم !

تابع الجميع سهرتهم محاولين إقناعه بأن يعلم أباه بهويته، إلا أن بروده في الرد كان أقوى من تجمعهم، ولكن لا مجال لليأس، قضي الأمر ولا بد للتائه أن يجد مستقرًا.

*****

خرج الشيخ من عندهم مسرعًا ليدرك موعده، خالجته نشوةٌ غريبةٌ حين شعر أنه على وشك إقناعهم بالعودة إلى الإسلام، عبر أحد الشوارع للجهة الأخرى مفكرًا في الخطوة القادمة التي سيتخذها معهم، وبينما هو غارقٌ في التفكير لم ينتبه إلا على بوق سيارة فَصدمة قوية حطمت عظامه ثم طرحته على الأرض مغشيًا عليه..

أفاق في المشفى وحوله أصدقاؤه ومعارفه، أول ما وعى بحث عن هاتفه فقالوا تحطّم، تملكّه الحزن إذ تحطمت وسيلة الاتصال بهادي ومن معه، أرقامهم مسجلة على الهاتف ولا يعرفون طريقًا له إلاه، ثم هدأ روعه لما تذكر أنه علم مكان قهوتهم وعزم على الرجوع حين يخرج مباشرة..

جاء الطبيب بالتقارير وكانت الصدمة، لا يمكن له أن يخرج من المشفى قبل شهرين !

يا لِبعد كل قريب! استقبل الشيخ الخبر مسترجعًا محوقلًا، وصبّره من حوله فسلُّوه عن صدمته، وهيأ نفسه لمكوث شهرين في المشفى حتى تتم له العافية .

*****

مرت ساعاتٌ بعد ذهاب الشيخ ومابرح دانيال وعمر يحاولان إقناع هادي، ومنى وأحمد يتدخلان من حينٍ لآخر، وبينما الجميع جالسٌ على القهوةِ كلٌّ منشغلٌ بشأنٍ هو فيه إذ علا صوتُ سارينة الشرطة، وقبل أن يُمنحوا مساحةً للاستيعابِ هجمَ عليهم عصبة من المخبرين بالهراواتِ والعصيّ يقبضون على من استطاعوا منهم وينعتونهم بأقذح السباب والشتائم، ثم من بعدهم تشكيلٌ من الأمن المركزي حطّم القهوة بمرفقاتها فلم يتركها إلا مساوية الأرض علوّا

فرَّ الجميعُ بلا وجهةٍ وفرَّ هادي وأصدقاؤه إلى الشقة، وصلوا بصعوبة بعد أن ضللوا المخبرين كما بدا لهم، دخلوا وصوتُ سارينات الشرطة في الأسفل يخالط صوت أنفاس صدورهم في الأعلى، تفقدوا أنفسهم فلم يجدوا دانيال!، فتحت منى النافذة ونظرت إلى الشارع فوجدت مجموعة من المخبرين متكالبين عليه بالهراوات حتى قادوه إلى بوكس الشرطة معتقلًا ..

صرخت إلا أن أحمد كتم صراخها بيده لئلا يُكشفوا، أغلقوا الباب والنوافذ، وتجمعوا حيارى خائفين ينتظرون مصيرهم وقدرَهم ! وصوتُ المخبرين بالأسفل يتعالى: يا ملحدين يا شواذ يا ولاد الكلب!

* * *

(3)

بَطيئا مرت الأيام تعتصر فؤاد الشيخ على سريره، عدّها كمنتظرٍ مجيء حبيب، وهل أحب من العافية؟

بعد أشهرٍ أعلن الأطباء له عن تمام عافيته فسرت روحه في بدنه واخضرت ملامح وجهه، قام ينفض عنه آثار المرض عازمًا على العودة إلى هادي ومن معه، كيف تراهم الآن بعد تلك الغيبة! هيهِ لأيامٍ مضَت فقطعتها الحوادث!

خرج من المشفى مباشرةً إلى قهوتهم على ما فيه من بقية مرض، لم يجد إلا ركامًا فوقه ركام ! أي حادثٍ جلل حدث في غيابي فغيّر معالم شارعهم؟ علّه خير..

كثيرًا بحث حتى يأس، فقرر معاودة نشاطه بين قاعات المحاضرات تاركًا الأيام تجمعهم كما جمعتهم أول مرة! وهل تجمعُ الأيام منتظرين اللُّقا؟ ربما !

*****

تجمعوا في شقتهم بعد أن حُطّمت قهوتهم، ما زال على وجه دانيال آثار ما تلقاه في قسم الشرطة من ضرب مبرح !، وعلى وجوههم آثار حقدٍ دفين طفح على تقاسيمها، قالت منى لهادي:

- ذلك الملعون تملّقنا حتى اكتشف مكاننا ثم دلهم علينا !
- أخبرتكم أنه ملعونٌ فما اقتنعتم !

وقال دانيال:

- أقسم على رد كل ضربة تلقيتها في قسم الشرطة لوجهه !

صمت هادي ولم يبدِ تعليقًا فقال أحمد :

- من كان يصدق أن ذلك الشيخ إنما كان يحسن معاملتنا لنخبره بمكان تجمعنا فيبلغ عنا الشرطة !!

ردَّ عمر :

- لا أدري لمَ يراودني شعورٌ أن لا دخل له بما حدث !

فردَّت منى بحنق :

- حقًا ؟؟ ولماذا يغلق هاتفه إذًا كل هذه المدة حتى يمنعنا من التواصل معه ثانية !!؟

صمتوا بُرهةً ثم قال هادي:

- الانتقام هو الحل !!
- دعنا من انتقاماتك ! ما أوحلنا إلا هي..

تابع هادي ولم يلتفت لرد منى :

- فقط نجده، وأقسمُ بكل ألمٍ مررت به أن أنتقم !

لم يكَد يُنهي حديثه حتى اتصل به حوده القهوجي الذي أخذه إليه خاله يوم بحثوا عن والده أول مرة.. رد على هاتفه مستبشرًا وقال :

- ها.. هل وجدته ؟
- بالطبعِ وجدتُه ! لا أحد يغيب عن حوده ..
- كف عن مدحِ نفسك ! أين هو ؟
- اليوم يحضر ندوةً في وسط البلد.. بعد العشاء

بهدوءٍ أنهى مكالمته ثم نظر للجميع وقال :

- حان وقتُ المعركة !

قالوا جميعًا :

- علام تعزِم أيها المجنون ؟
- فضيحةٌ على الملأ تهتك ستر الراعي أمامِ خرافه الضالة !
- ثم ما؟
- لكل حادثةٍ حديث !

*****

ضجت القاعة بالسلام على الشيخ مهنئين إياه على العافية، بدت مهيبةً أكثر من ذي قبل ! كأنما شعرت بما خُطط له !

صعد الشيخ على المنصة ثم بدأ حديثه ممتلًا بمشاعرَ حُرم منها أشهرَ مرضه، انخرط في الكلام بكل جوارحه إلى أن ظهر أول فردٍ من أفراد الشلة عند باب القاعة فاستحال وجهه مبتسمًا، ما علم بما بُيّت له،

التقت عينه بعين هادي فاهتز قلبه دون سبب يعرفه، أما آن لذلك القلب أن يُنزع عنه الستار لنعلم ما بداخله ؟

كغيرها انتهت الندوة ثم كانت المفاجأة: رفع هادي يده طالبًا اعتلاء المنصة ليخاطب الحضور بكلمة، وافق الشيخ متهلّلًا وحدث نفسه: جاءوا ليعلنوا إسلامهم ! وكم في الشر من خير!

اعتلى المنصة بهدوءٍ والجميع يرى ويسمع مترقبًا، حتى أصدقاؤه يتوجسون خيفة من عواقب ما يقدمون عليه !، بدأ هادي بلا مقدماتٍ يحكي قصّته البائسة من أول حرف فيها..

وعى الحياةَ ليجد نفسه في دار أيتام !

وكلما تعمق في السرد زادت بسمة الشيخ إذ ينتظر المرحلة الأخيرة : إعلانِ إسلامه، وزاد قلق أصدقاء هادي إذ ينتظرون المجهول !

ها قد عاد الماضي ليواجه الحاضر بكل قسوةٍ وضراوة، كأفعى تخرجُ من جحرها كلما واتتها فرصةٌ فتنهش ما تطال أنيابها ثم تعود، تعودُ ولا يعود معها السم !

زأرت السماء بالرعد معلنة عن هطول المطر، وأنهى هادي قصته حتى بلغ لحظة وصولهم إلى تلك القاعة ثم قال بعد أن رفع من نبرة صوته مخاطبًا الجميع :

- والمفاجأةُ هنا أيها السادة أن ذلك الأب القاسي الذي رمى بي وبأمي هو هذا الشيخُ الواقف أمامكم يظهر الخشوع والفضيلة ويطوي الخبث والخسة والنفاق !

ثم صمت! وصمتوا جميعًا ! توقفت عقارب الساعة عن الدوران برهة بين ذهول المستمعين وصدمة الشيخ وترقب الشلة وانكسار قلبٍ قتله الوجَع !

يا لصدمتك أيها المسكين! تنتظر نتيجة عملك! أليس هذا عملُك قد عاد إليك وإن بعُد وقته؟!

مضت ثوانٍ أبطأ من سنواتٍ على قلب كل حاضر!، وفجأة هرول الشيخ تجاه هادي ثم احتضنه جاثيًا على ركبتيه وانفجر باكيًا !

اهتزت مشاعر الحشد كأوتارِ عودٍ في ليلةٍ مقمرة، حتى أصدقاء هادي خشعت قلوبهم بحضرةِ الموقف !

إلا هادي، كان كجذع نخلٍ لا تهزه ريح، ظلّ متصلبًا بين يدي والده فلم يهتز ! مات قلبه..

مرت دقائقُ شق فيها نحيب الشيخ هدوء المكان تحت دقات المطر، شيئًا فشيئًا تماسك الشيخ حتى قام، أمسك بمكبر الصوت ثم نظر إلى الناس وقال :

- نعم أيها السادة، إنه أنا.. ذلك المجرم كان أنا !
كثيرًا ما كتبت في بدايات كل مصنفٍ لي مذ بدأت التأليف أني أرجو بذلك العمل تكفير ذنب ارتكبته منذ سنوات!، وها هو الذنب قد عاد ليواجهني في هذه اللحظة أمام أعين حضراتكم.. منذ عشرين سنةٍ كنتُ صعلوقًا صاحبَ كأسٍ أعاقر الخمر ولا أعرفُ عن الإسلام شيئًا ! كنت أشبَه بلمحدٍ لولا أني لا أصرّح بذلك، لم يكن لدي دافعٌ يوجب عليّ تحمل المسؤولية ! لا

أعرف عن الله إلا اسمه الذي ورثت العلم به عن أمي -رحمها الله-، لم أكن مقتنعًا بوجوده لكنني لم أشغل نفسي كثيرًا بالوقوف عند ذلك، فانهمكت في ملذات الحياة متناسيًا كل شيء سواها.. حتى مرضت زوجتي رحمة الله عليها فتأففتُ منها وابتعدت عنها لكن لم أطلقها، ولم يكن لدي حينها شيءٌ يمنعني من ذلك ولا ضابطٌ يضبط سلوكي أو يبعدني عن ما فعلت فقد كنت لا أومن بالله!، ثم فررت إلى القاهرة متهربًا من كلِ شيءٍ ومواصلًا الانغماس في الملذات، وظننتها ماتت بما في بطنها، ولم أدرِ أن لي ابنًا وُلدَ إلا في لحظتي هذه، ولولا أنه ذكر من التفاصيل ما لن يعلمه إلا صادقٌ لما صدقته !

وظللت كذلك خمس سنواتٍ لا أشعر بخسة ما صنعتُ ولم أرَ فيه مشكلةً ولا وِزرًا فما كنت أعترفُ إلا بنفسي ثم لا شيء! كثيرًا ما كنتُ أتباهي بتخلُّصي من تلك المرأة في جلساتِ السُكرِ والشراب !

حتى منَّ الله عليَّ بالتوبةِ بعد صدمةٍ تلقيتها منذ خمس عشرة سنة، ولما تدينتُ وعرفتُ اللهَ بدأت أحاسب نفسي خوفًا من عدله الذي إن لم يقِمه معي الآن أقامه معي في الآخرة، ولم أجد جريمةً ارتكبتها أكبر من تلك التي ارتكبتها في حقِّ زوجتي رحمها الله ، عدتُ إلى الإسكندرية أسأل عن قريبٍ لها فما وجدتُ، وما علمتُ بأن لي منها ابنًا فلم يخبرني أحد !

عدتُ وفؤادي ممزقٌ بعد أن أعاد الدين إليه الحياة، ولم أجد طريقة لتكفير ذنبي إلا أن أدعوَ الناس إلى دين الله، فبدونه فعلتُ ما فعلتُ إذ لم يكن لدي مانعٌ يمنعني، وبالدين أحسست

بجرمي وإثمي.. ولو كنت وقتها أعرف عن الله شيئًا لما فعلتُ ذلك!

وإني يا بُنيَّ منذ خمس عشرة سنةٍ ما أشرقت شمسٌ إلا على دموعي وأنا أدعو لي ولأمك أنِ يجمعنا الله في جناتٍ ونَهر، وأن يغفر لي إثمي وخطأي، وما كتبتُ كتابًا ولا ألقيت محاضرةً ولا حججت حجة ولا اعتمرت عمرةً ولا صمتُ يومًا ولا تصدقت صدقة إلا تقاسمتُ معها الأجر واهبًا إياها نصفه!

ولعلَّ الله قدَّر لي أن يرحمني ويخفف عني إذ جمعني بك بعد عشرين سنة من التيه والضياع، فأكفِّر بالاعتناء بك ما ضيعته وأجبرُ بك ما كسرته، فحمدًا لمن اطلع على القلوب فعلم انكسارها فأبى إلا أن تلتئم !

أنهى الشيخُ كلامه وقد ألقاه مغمضًا عينيه يمنع الدمع من الانهمار، ما إن فتح عينه حتى وجد جميعَ الحضور يبكون مقشعرين من ألم الموقف!

بكت منى، ونظر دانيال خاشعًا إلى أحمد فوجده يحبس الدمع بمعاناة، وإلى عمر فوجده ينظر للأرض !

علا صوتُ تصفيقةٍ من آخر القاعة فانضمت لها أخرى من المنتصف، ثم ازداد التصفيق سريعًا فانتفضت القاعة كلها تضج به ! ووقفوا جميعًا احترامًا للحظةٍ عز الزمان أن يجود بمثلها!، وبعد ذلك كان الصمت يخالجه صوت المطر سيدَ الموقف !

*****

انصرف الناس وعاد الشيخ إلى احتضان هادي التائه في الملكوت! أكل شيءٍ كان خاطئًا؟ القاسي والمنافق لا وجود لهما؟ وذلك الضياع في القاهرة.. المدينة الخانقة ! لم يكن له سبب؟!

أيُّ شيءٍ مما أعرفه خدعة هو الآخر كما تلك الخدعة؟ دنيا ! هل كانت بدورها خدعة؟ أنا! من أنا في ذلك الكون؟ وهل الكون إلا خدعة كبيرة؟!!

صعد كل الأصدقاء إلى المنصة مهنئين هادي والشيخ معًا على وصولهما لبعضهما، معتذرين له عن كل ما سبق !

قابلهم ببسمة يخالطها البكاء فقالت منى :

- لكن إن كان كذلك.. فلماذا أبلغت الشرطة عن مكاننا!!

اندهش الشيخ لما قالت فاستفهم منها أكثر، فلما فهم ما ترمي إليه أخبرها بكل ما حدث له، فكرروا جميعًا الاعتذار عن سوء فهمهم المتكرر !

هتف دانيال :

- إذًا نحتفل الليلة بعودة الابن الضائع !؟

ضحك الجميعُ وأبدوا الموافقة !، وقال الشيخ :

- نحتفل لكن على طريقتي !!

أقروا له بذلك ثم نظروا إلى هادي الذي لم ينطق بكلمةٍ منذ أنهى حَكيَ قصته ! فقال بنبرةٍ خافتة :

- أحتاجُ العودة إلى الشقة لتغيير ملابسي والتهيُّؤ للخروج !

ابتسم الشيخ وقبّل رأسه بحنوٍ ثم توجهوا جميعًا إلى الشقة .

*****

مرت نصفُ ساعةٍ على انتظارهم خارج الشقة لهادي، بدا القلق على ملامحهم فقالت منى:

- أظنه يعد مفاجأةً لنا بالداخل ! دعونا نفاجئه نحن..

أخرج دانيال نسخةً معه من مفتاح الشقة ثم دخلوا جميعًا متسللين إلى غرفته ..

وصلوا إلى باب غرفته فلما رأوه صرخت منى ثم أغشي عليها، وجثا أبوه على ركبتيه عاجزًا عن النطق، وذهل عمر فأغمض عينيه وكاد أحمد أن يخر على الأرض لولا أن استند على الحائط، ثم وصل دانيال بعد أن أغلق الباب بهدوء متسللًا فأمسك رأسه لهولِ ما وجد!

أبرقت السماء فاقتحم الضوء النافذة مظهرًا ظله على الحائط وهو شانقٌ نفسه بملاءةٍ في مروحة السقف وتحته ورقة!!

اقترب دانيال وهو لا يصدق عينيه والجميع متجمدٌ مكانه، ثم فتح الورقة فوجدها مكتوبًا فيها:

"حينما تحكون قصتي قولوا: شخصٌ لا يعلمُ لماذا أتى فرفض الاستمرار".

تمَّت

***

للتواصل مع الكاتب :

G-mail : Hassan.bokhary97@gmail.com

FB : www.facebook.com\page\hassanbokhary

الجـاحـد

*إهداءٌ إلى كل من يُعمل عقله بشجاعةٍ للوصول إلى الحقيقة ..

*إهداءٌ إلى من يعرف قدر عقله لا ينقصه حقه ولا يولِه فوق منزلته متجنّيًا عليه ..

*إهداءٌ إلى شيخٍ يدعو الناس لا يدعو عليهم ..

*إهداءٌ إلى دولةٍ تقارع الفكر بالفكر لا بالهراوات ..

*إهداءٌ إلى واقع أجمل .. إلى مستقبلٍ مشرق بيننا وبينه خيطُ أمل ..

*إهداءٌ إليك !

مجـرة
MGRH